محمد المخزنجي

حيوانات أيامنا

كتاب قصصي

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

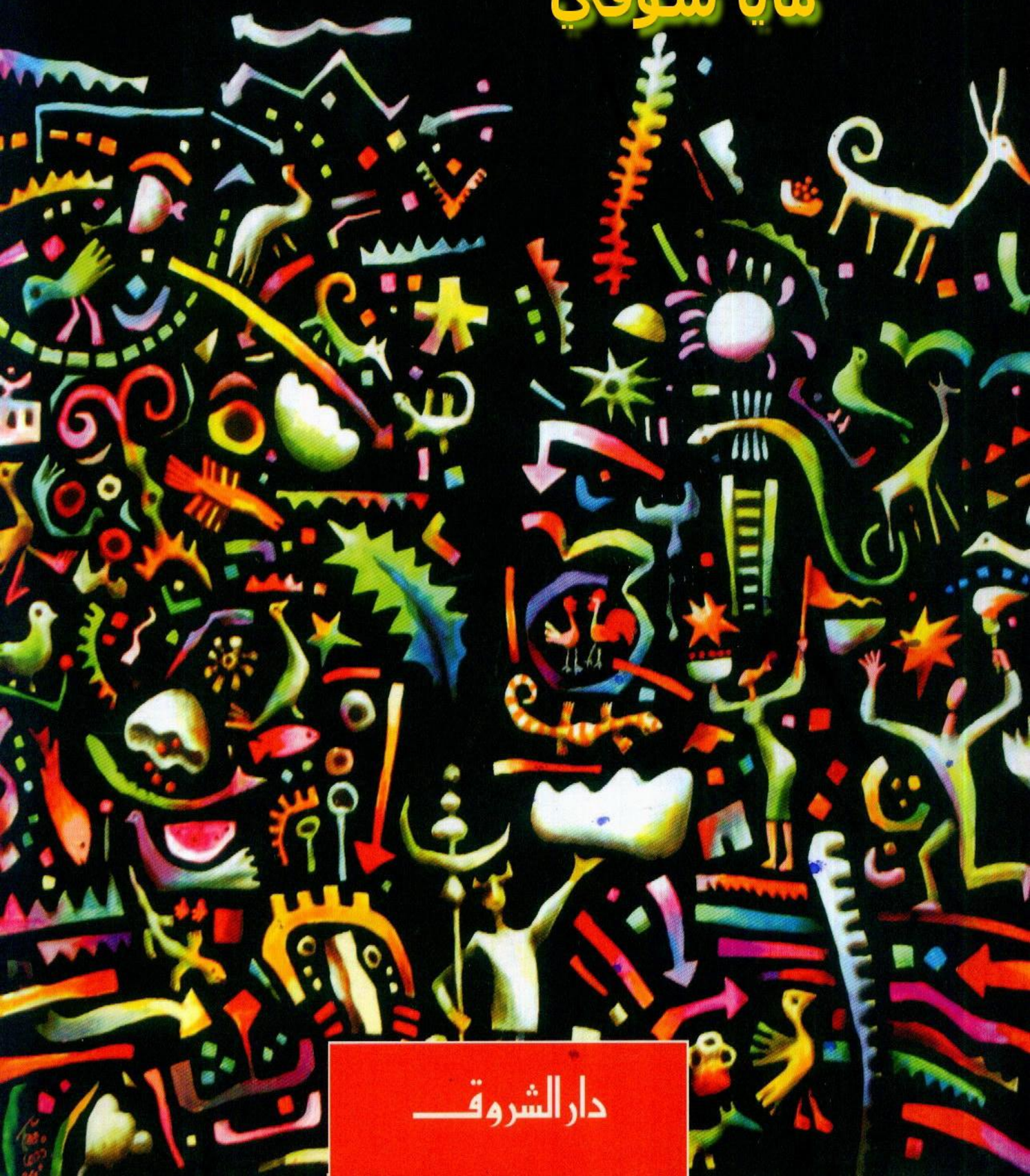

دار الشروق

في هذا الكتاب:

غزلان قادرة على الطيران تتبختر، وأسماك تميز الشعر في رنين الصوت. أفيال متبتلة للماء يجتاحها الجنون، وخيول تميتها الرتابة ويحييها الحلم. دببة تفقد أسنانها في عشق النساء، وجواميس تتفجر في غمرة النور. فراشات بحر تغري وتغوي، وأتن يشعل حليبها محارق التاريخ. إنها ليست مجرد حيوانات، بل حيوات، تتجاور مثل شظايا المرايا فتعكس صورة متسعة لإنسان اللحظة، تهمس أو تصرخ بالرؤى، مستلهمة وحدة التوليف في كتب التراث، ومفارقة باستخدام تقنيات الكتابة القصصية في لغة العصر.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com Exclusive

محمّـد المخزنجـــي

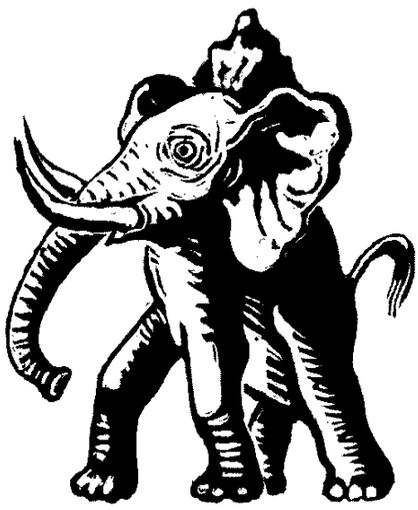

حيوانـــــات أيامنـــــا

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com Exclusive

الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع 897676/2006

ISBN 67576567

• الرسوم والإخراج الداخلي: **محمّد حجّي**

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)

البريد الإلكتروني: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

www.ibtesama.com Exclusive

محمّــد المخزنجـــي

حيوانـــــات أيامنـــــا

(كتـــاب قصصـــي)

دار الشروقـــــ

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

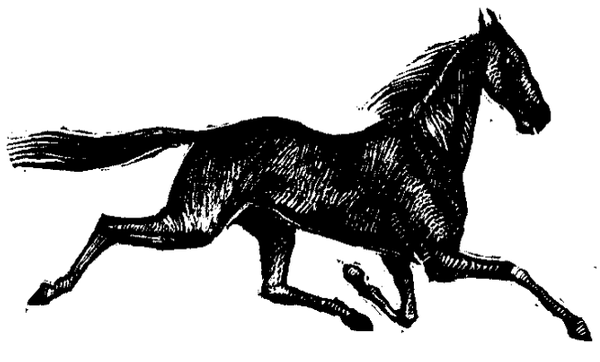

لمحتـــان

- «وأظنـك ممن يـرى أن الطـاووس أكرم على الله تعالى من الغراب، وأن التُّدرج أعز على الله تعالى من الحدأة، وأن الغزال أحب إلى الله تعالى من الذئب، فإنما هذه أمور فرقها الله تعالى في عيـون الناس، وميزها في طبائع العباد، فجعل بعضها بهم أقرب شبها، وجعل بعضها إنسيا، وجعل بعضها وحشيا، وبعضها غاذيا، وبعضها قاتلا، وكذلك الدرَّة، والخرزة، والثمرة، والجمرة، فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل».

- «أوَ مـا علمـت أن الإنسان إنما سمَّـوْه العالم الصغير سليـل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجـدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجـدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بيـن ما تقتاته البهيمـة والسبع، ووجدوا فيـه صولة الجمل، ووثـوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصِّفْرِد، وجمع الدَّرَّة، وصنعة السُّرْفة، وجـود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه، مما للبهائم والسبـاع، خُلُقيْـن أو ثلاثة، ولا يبلـغ أن يكون جملا بأن يكـون فيه اهتداؤه وغيرتـه، وصولته وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مِثل غدره، ومكـره، واستراحـه، وتوحشـه، وشـدّة نُكْـره».

(الجاحظ ـ كتاب الحيوان)

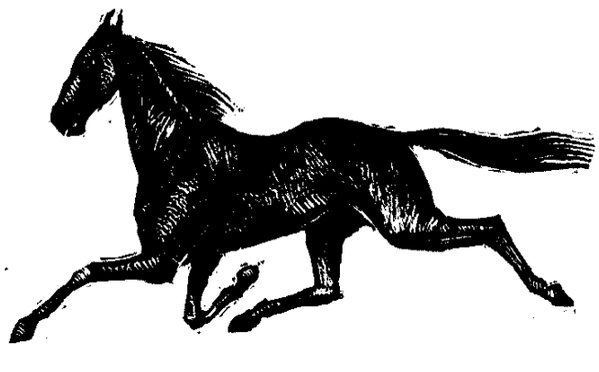

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

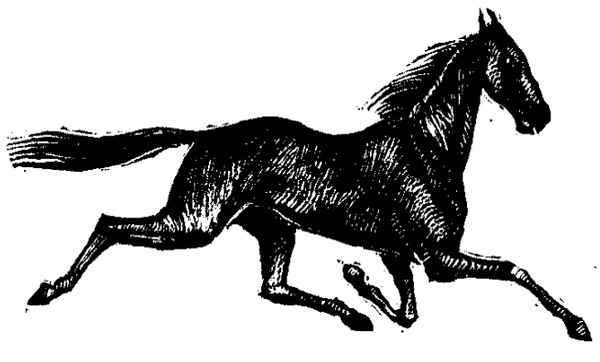

www.ibtesama.com Exclusive

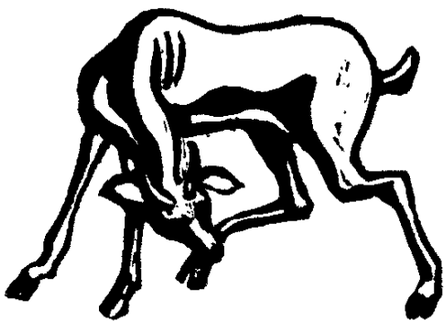

● عيون المها بين الرصافة والجسر/ جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري. **(علي بن الجهم)**

● في بحث ميداني اكتشفت الدكتورة لاريسا كونرادت والبروفسور نيم روبرت أن المجموعة الديمقراطية الاستثنائية ـ وسط بحر من المجموعات الحيوانية الطغيانية ـ هي مجموعات الغزال الوردي، فلقد تبين لهما باستخدام نموذج حاسوبي للمقارنة بين أساليب اتخاذ القرار التي تحدد سلوك المجموعات المختلفة من الحيوانات البرية، وتأثيرات ذلك في الأفراد، أن هذه المجموعة الديمقراطية الاستثنائية لا تتحرك من المرعى إلا بعد أن يصل عدد الأفراد الذين رفعوا رؤوسهم عن العشب شبعا، إلى نسبة ٦٢٪. كما أن هذا النوع من الغزلان عندما يجد مجموعة منه ترعى في مكان معين، يبحث عن مكان آخر للرعي بوداعة وفي هدوء. وتتوافق الغزلان على تنفيذ القرارات الديمقراطية السلمية هذه، كلها، بنداءات خاصة من لغة الأجساد المتفق عليها بين أفراد المجموعة.

(مجلة فوكَس ـ العلمية)

غـــــزلان

دخل المارينز إلى القصر بعد ليلة طويلة من برق القصف، ورعد الانفجارات، وصـوت الحطـام، ولهيب الحرائق. دخلوا مـع أول أشعة الفجـر المثقلة بأدخنة كثيفة ورائحـة أجساد تحترق، وكانوا منهكين وجائعيـن لكنهم ثملون بنشوات نصـر لم يتصوروه يتحقق بهذه السرعة، وهو مازاد من شعورهم بالجوع ودفعهم لتمشيـط أرجاء القصر الرئاسي وحدائقه بحثا عن طعـام، فوجدوا الغزلان هناك، ووجدوا الأسود أيضا.

كانت الغزلان متجمدة مـن الرعب، في حضن شجيرات الأسيجة التي تتخلل ممرات حدائق القصر، فلم يجد المارينز صعوبة في الإمساك بها، وجرها إلى مكان الاحتفـال في البهو الرئاسي، حيث أوقدت نار الشواء من خشب مقاعد محفورة بأمهـر أيادي صناع الأثاث في العالم، ومطلية بطبقات من رقائق الذهب الفرنسي

الخالص. وكان بعض أفراد المارينز قد اكتشفوا الأسود وهم يمشطون جنبات القصر، أربعة أسود في أقفاص من الصلب اللامع الذي لا يصدأ، تلوب جائعة في أقفاصها، وتزأر بحناجر أتلفها الجوع والدخان والغبار. كانت أسود ابن الرئيس التي تردد أنه يطعمها لحم من يغضب عليه. واقترح بعض المارينز إبقاء شيء من لحم الغزلان، للتسلي بإطعام الأسود بعد انتهاء الوليمة.

ضاع الاقتراح في جلبة صخب المنتصرين، ورائحة الشواء الباذخ لعشرين غزالا من نوع المها العربي الأبيض المليء، وعشرة من ظباء الرمل البديعة التي تبدو كأنها خُلقت من نسيم مرصع ببراعم الزهر. فما أن أشرقت الشمس حتى استحالت كل هذه الغزلان إلى عظام بيضاء مسودة، ترقطها بقع شحيحة من بقايا اللحم المشوي، وبعد الامتلاء نعس كثير من المارينز في أماكنهم على المقاعد الوثيرة، ولم يوات النوم البعض فحملوا العظام إلى أقفاص الأسود، جاهلين أن الأسود تعاف اللحم المشوي، فهل تلعق الأسود رماد العظام؟! ■

www.ibtesama.com Exclusive

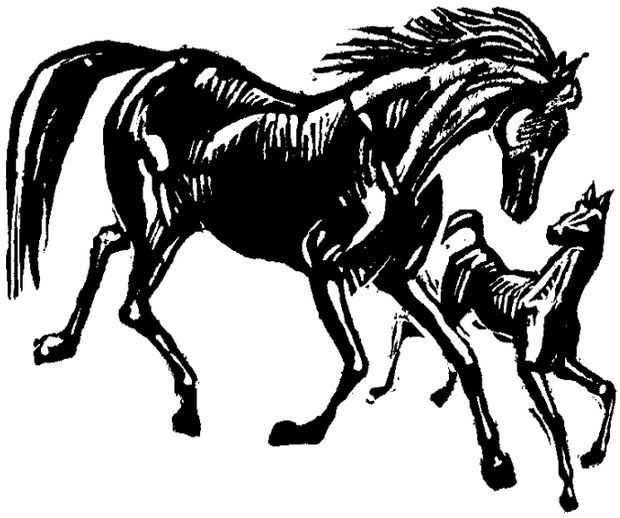

● قيل لبعض الحكماء أي المال أشرف؟ قال: فرس يتبعها فرس في بطنها فرس. (**الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى**)

مُهـــــــر

اندفع المهر الصغير مرتعشا بين قوائم أمه، عندما صك سمعه دوي الانفجارات ووَمض في عينيه بريق القذائف. لم يسمع صوت أي من البشر الذين كان يأنس بهم، ولا حتى الصوت المخيف لابن الرئيس، الذي كان ما إن يحضر إلى مضمار القصر حتى يرتعش السُيّاس وترتعش الخيول. كان صوته خشنا، ويده ثقيلة وغاشمة، وله أسنان كبيرة تظهر وهو يكشر للآخرين أو يضحك له، له وحده كان يضحك، يحيط رقبته بيسراه ويهلل ضاحكا ويُخرِج له من جيوبه السكر، أنقى أنواع السكر في العالم، ليطعمها له بحُب ومرح، بينما كان مع الآخرين قاسيا وغضوبا. رآه مرة يضرب سائسا تأخر في تجهيز حصانه، يضربه بحذاء الركوب ذي المهماز الحديدي بعد أن أوقعه أرضا، وظل يركل رأس السائس حتى سال الدم من أنفه وفمه وأذنيه، بل إنه اعتدى على أم المهر نفسها بضرب شديد، عندما جفلت جفلة صغيرة وهو يهم بركوبها، ظل يلطمها على خطمها وهي تلوب وتحمحم باكية حتى تدفق من شدقيها الدم، ولم يتوقف عن لطمها إلا بعد أن اندفع هو، المهر، وحال بينه وبين أمه.

أحس المهر ببطن أمه الدافئ متوترا فوقه، وكانت تنقِّل أرجلها بململة مكبوتة حتى لاتتخبط قوائمها ببدن الصغير اللائذ بظلها، وكانت ترتجف متشبثة بمكانها كلما دوت قذيفة أو لمع بريق انفجار، لكنها في فترات الهدوء القليلة لم تكن تكاد تسترخي، ويستشعر مسيل حنانها، حتى يعود الدوي والبرق، قصف وصمت. قصف وصمت. حرائق، وصوت انهيار أبنية وصرخات، وبعد ليلة طويلة منهكة، ساد سكون مخيف، ومع أضواء الفجر الأولى سمع المهر جلبة أصوات أناس يتصايحون، وأقدام تهرول، ثم اقتحم المكان بشر كثيرون ذوو سحن مغبرة وعيون محمرة، أخذوا يتلاطمون حول الحظيرة، ثم طار الباب وشعر المهر بتملّص جسد أمه التي أحاط برقبتها حبل خشن، امتدت قطعة منه لتحيط بعنقه هو الآخر، ورأى نفسه يجري مع أمه، موثوقين معا في حبل مربوط بمؤخرة سيارة نصف نقل متهالكة، تقعقع في شوارع طويلة مُدمَّرة، تشتعل على جانبيها الحرائق، وتتناثر فيها الجثث، وتعمها الفوضى.

أراد المهر أن يكون في ظل أمه، فأسرع في عدوه، وعندما حاذاها وجدها مشدودة العنق، بالحبل المُطوِّق الذي يشدها إلى عربة نصف النقل المسرعة. لم تستطع إدارة رأسها إليه، لكنه رأى عينيها المخنوقتين تحوران رانيتين إليه بنظرات معذبة، حمحم وهو يعدو إلى جوارها فحمحمت تجاوبه، حمحمة مذبوحة تخرج من عنق يقاوم الاختناق، تقطعت الحمحمة ولم يعد يسمع غير صوت لهاث متحشرج، وقعقعة حديد، بينما كان يزيد من سرعته، صار بين قوائمها، لكنها تعثرت، وهوى سقفها الدافئ عليه، فصار ينسحق بين دفء بطنها وأسفلت الطريق، يسمع حشرجة أنفاسها، ويرى قوائمها المسحولة على الأسفلت المترب ترتعش، تنزف وترتعش. ■

● الكلب: ليست تتم له السلامة؛ لأنه في حال متوقع للبلية، ومتوقع البلية في بلية، فإن لم يسلم فليس على ظهرها مُبتلى أسوأ حالا منه. وإنه ليتردد على الصبي وهو في المهد، وهو لحم على وَضَم، فلا يشمه، ولا يدنو منه. وهو أكثر خلق الله تعالى تشمما واستراحا. **(الجاحظ ـ كتاب الحيوان)**

● في الليلة التي تسبق الفيضان السنوي للنيل كان المصريون القدماء يرصدون ظهور نجم ساطع في قبة السماء، فربطوه في مخيلتهم بالكلب الذي ينذر بوقوع الخطر، وأطلقوا على هذا النجم اسم «سيريوس»، وهو كلب الصيد، ثم أصبح هذا الكلب نفسه تجسيدا مقدسا لليقظة. وتظهر رسومه فوق عتبات الممرات في معبد أوزيريس. **(الإنسان والحيوان ـ يوري ديمتريف)**

جِـــــراء

توقف القصف منذ الأمس، وخرج الناس إلى الشوارع مع ضوء النهار. كانت بقايا الحرائق لا تزال تدخن، وحطام الأبنية المنهارة ينتشر في كل الأماكن، وأرتال الدبابات والعربات المصفحة توغل في الشوارع وتنتشر في الميادين. أكمل الغزاة احتلال المدينة، وفي الوقت ذاته أسقط هؤلاء الغزاة نظام الحكم الذي استمر جاثما على الصدور خمسة وثلاثين عاما. لم يستقبل الناس الغزاة بالورود في المدينة المحترقة، لكنهم كانوا ينطلقون وسط الخرائب بخفة المفلتين من رقابة مزمنة، كانوا منعتقين ومتوجسين، وكانت هناك حالة انفلات وإنهاك تسود كل شيء، حتى الحيوانات السائبة التي كانت مبعثرة في كل الأماكن، أغلبها كلاب

ضالة، وجراء صغيرة تتبعها، كثرت بشكل خاص، غامض، في الحديقة الكبيرة على شاطئ النهر، حيث تجمّع عشرات من البشر يقرفصون ويميلون وينبطحون، ملصقين آذانهم بالعشب وبالتراب، لعلهم يلتقطون أصوات الغائبين التي شاع أنها تتسرب من سجون خفية تحت الأرض. أصوات أخوة، وأصدقاء، وأقارب، وأحباب، وجيران، ومعارف، عشرات، مئات، بل آلاف، اختفوا منذ سنين بعيدة في غياهب النظام الذي تلاشى منذ الأمس. تردد أنه كان يودعهم في سجون صماء تحت الأرض، وشاع أنهم عَرفوا بسقوط النظام عندما رأوا حراسهم يفرون تاركين الأبواب المصفحة موصدة عليهم. أخذوا ينادون مستصرخين من يفتح لهم الأبواب. ثمة من أقسموا أنهم سمعوا صرخاتهم، وثمة من كانوا يحاولون التقاط هذه الأصوات، يلصقون آذانهم بالأرض ولا يتحدثون إلا همسا أو بالإشارات. صمت غريب ساد جنبات الحديقة واستجابت له الكلاب الكثيرة التي كانت تتوقف مصيخة أسماعها التي تلتقط مالا تستطيع آذان البشر التقاطه، تنتصب آذانها وتنسدل، وتلوي رؤوسها لترهف زوايا الالتقاط، تبدو متحيرة وهي لاتستطيع أن تميز إن كانت هذه الدمدمة المكتومة الصادرة من جوف الأرض هي أصوات مصفدين في سجون مدفونة في الأعماق، أم ترجيع مكتوم لصوت جنازير المدرعات الغازية، التي راحت تهرس الأسفلت، وبقايا النخيل المقصوف المحترق، وعظام القتلى والجرحى المبعثرين في الشوارع. أما الجراء التي كانت أسماعها البكر شديدة الرهافة، وتلتقط مالا يلتقطه سمع الكلاب الكبيرة، ولا البشر، فإنها كانت ترتجف ارتجافا شديدا غريبا، وتُصدِر أصواتا مؤلمة كالعويل. ■

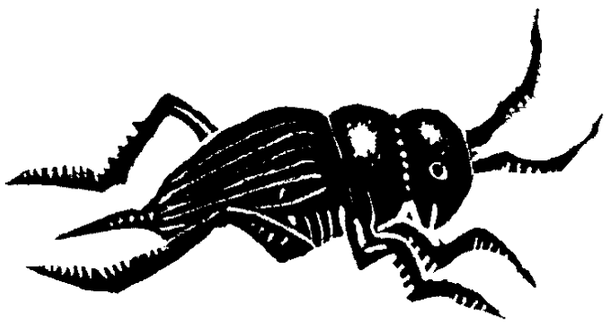

● الجندب: نوع من الجراد يصر ويقفز ويطير. (**القاموس الوجيز**)

● الجُدجُد (وقيل إنه الجندب): بالضم صرار الليل قاله الجوهري، وهو قفاز وفيه شبه بالجراد، وقال الميداني: الجدجد ضرب من الخنافس يصوت في الصحارى من أول الليل إلى الصبح، فإذا طلبه طالب لم يره، ولذلك قالوا أمكن من جدجد. (**الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى**)

جنـــادب نحاسيـــة

علـى الضفة اليسرى مـن شارع «سوخومفيت»، إذا كنـت متجها نحو طريق فوكيـت، وميـدان سيام، يوجد أحـد أكبر وأكثر أسـواق التزييف في العالم. تجـار ليسوا تجـارًا ينشـرون بضاعتهم علـى مناضد متجاورة بطـول الرصيف الممتـد لعـدة كيلـو متـرات، تحـت مظـلات كالحة، وفـي عشوائيـة، وكل بضائعهـم مقلـدة، مزيفـة، حقائـب، ملابس، ساعـات، نعـال، أدوات مائدة، لوحات، منحوتات خشبية، عطور، مُدى، مصابيح، أشياء بلا حصر تحمل أسماء مـاركات عالمية لكنها جميعًا مزيفة. وكانت هناك تلـك الجنادب النحاسية التي اشتريتها.

لـم أكتف بشراء جندب واحد، بل اشتريت ـ بربع الثمن الذي عرضه البائع ـ جندبيـن في علبتين ورقيتين صغيرتين مكسوتين بقماش ذي رسوم صينية منمنمة، لـم أستطع بتفقدهما عند البائـع أن أتوصل إلى كشف سريـع للحيلة الكامنة وراء انبعـاث صرير، يطابـق صرير الجنادب الحقيقية في هـذه «اللعبة»، يبيعونها على أنهـا لعبـة. اكتشفـت مفارقتها وأنا أهـرول في الممـر العطن، بيـن مناضد باعة

البضائـع المزيفة، ومطاعم الرصيف الصغيرة التي تبيع مأكولات غريبة.. لحم بط مدخـن أقرب إلى أن يكـون محنطا، وأسمـاكٌ مقددة كأنها مومياوات، وبيضٌ مسلـوقٌ تم تحويل بياضـه بطريقة طهي غامضـة إلى لون أسـود لامع. روائح لا تطـاق، كانـت تجعلني أهـرول دائما في هـذا المـكان كلما مررت بـه وأنا في بانكـوك، لكنني اضطـررت للإبطاء هذه المرة، عندما لفـت انتباهي هذا الصرير في قلب النهار الآسيوي الساطع.

صرير جنـادب في النهار؟! ساءلـت نفسي مستغربًا وأنا أهـرول، وأبطأت حيـن أدركـت أن الصرير ينبعـث من فوق طـاولات باعـة الرصيـف، توقفـت، واقتربـت منحنيـا من إحـدى الطـاولات التي صُفَّـت عليهـا عشـرات العلب الورقيـة الصغيـرة، وكان الصـوت يرتفع مـع اقترابي. سمعت صيـاح البائع من الجانـب الآخـر: «مائة بات للواحـدة. مائة بات». ورجَّحـت أن العلب الورقية الصغيـرة هي مصدر الصرير؛ تأكـدت من ذلك عندما رأيـت الجنادب النحاسية المهتـزة داخل بعض العلب المفتوحة، وهي تبـرق على خلفية من قماش الساتان الأحمـر المبطن للعلب. كانت جنادب معدنية لامعة. جندب واحد في كل علبة، يبـدأ في الصرير عند فتح الغطاء، ويسكـت عند غلقه! رحت أفتح وأغلق، وأتفقد علبا أخرى بها تلك الجنـادب النحاسية نفسها، والأمر ذاته يتكرر! لعبة مدهشة، اشتريت منها اثنتين، وقررت أن أبدأ في التعرُّف على سر صريرها فور عودتي إلى الفندق.

فندق جريس الذي اعتدت الإقامـة فيه كلما نزلت بانكوك، كان سيركا بشريا عجيبـا، مسليا ورخيصًا إلى درجـة يصعب تصديقها مع نجومه الخمسة، وكانت الجرائـد العربية تصـل إليـه بانتظـام، ثـم إنه كان يقـع في منطقـة «نانـا» التي يكثـر بهـا العرب والمطاعم العربية، وهو على مبعدة خطـوات من شارع سوخومفيت ذاتـه، الشارع الذي كنت أزدريه وأدمنه فـي آن؛ ففيه تجتمع المنفرات والغرائب

ونقـاط الجذب، وكل الخدمات التـي يطلبها المسافر: مكاتـب طيران، تحويل عملـة، وعـدة مراكـز تجاريـة هائلـة، وثلاثـة مـن أفضـل مخـازن الكتـب في العالـم.

فـي الطوابـق السفليـة تحت بهـو الفنـدق، كانت توجـد صـالات القمـار، والنوادي الليليـة، وحمّـام الساونـا، وقاعـات «المساج»، وأعجب صالة عرض رأيتهـا في كل البلاد التي زرتها أو مررت بهـا، ويقال إنها نشأت في أثناء الحرب الفيتناميـة، لتلبية رغبات جنود المارينز الذين كانوا يقضون عطلاتهم الميدانية في تايلانـد، صالة لعرض بنات الهوى المتكدسـات على منصة دائرية دوارة مكسوة بمخمـل قرمزي، وراء سيـاج زجاجي يحيـط بالمنصة ويشـكل «فاترينة» يقف أمامهـا «الزبـون» ليلتقـط مبتغاه مـن الفتيات الدائـرات شبه العاريـات، يتهافتن عارضـات مفاتنهن ومرسـلات إشارات طلـب الصحبة والقبـلات الطائرة على أطـراف الأصابع. أما في البهو والردهات والقاعات والطوابق الأخرى والغرف، فإن كل المباذل الدنيوية كانت تتفاعل بثقة، محمية بمظلة واضحة الحضور، وإن تكـن غير مرئيـة. ورشة هائلـة لتعاطي وتجارة المخـدرات، والسُّكْـر، والبغاء، والقمـار، وتهريب الأحجـار الكريمة وخشب البخور النـادر، وصفقات غسيل الأمـوال المشبوهـة، وأذونـات تصدير البضائـع المزيفة. ماخـور كبير، ووكر، حدثـت فيـه جريمتـا قتـل، وتحدث فـي أعمـاق ليلـه مشاجـرات لاتنتهي بين السكارى، وبـكل أركانه تتصاعد الكلمات العربية والتركية والأوردية. ويبدو أن المـكان قد استهوى أيضًا أبناء البلدان الغربية، فقـد راح هؤلاء كنزلاء الفندق من الشرقييـن، يتحدثـون بأصوات مرتفعة، وأيـاد لا تكف عن التلويـح. ولعل هذه الضوضـاء هـي التي غطت دخولـي دون لفت للأنظـار؛ إذ كان أحـد الجنادب منطلقًـا في الصرير بإلحاح وقوة، مما جعلني أسرع، بينما كنت أفكر في أن غطاء علبته لابد قد انفتح.

كان فضولـي في أوجه؛ فشرعت أفتش عن سـر صرير الجنادب النحاسية فور دخول غرفتي. تناولت إحدى العلبتين وفتحتها فتصاعد الصرير وأغلقتها فانقطع، ورحـت أغطي العلبة بيـدي فينقطع الصـوت، وأرفعها فينطلـق؛ فانكببت أعاين محتوياتهـا. لم أمعن في اكتشاف سر اهتزاز الجنـدب؛ إذ بدا لي بسيطا ينشأ عن التجـاوب مع الحركة، ونبض زنبرك صغير لابـد أنه كان يرتكز عليه، أما الصوت فقـد أعيانـي تفسيره، وعبر تكـرار إغلاق العلبـة براحتي وانقطـاع الصوت، ثم انطلاقـه مع رفعها، رجَّحت أن ذلك مرتبـط بالضوء، ورحت أتلمس وجود خلية كهروضوئيـة تقوم بذلك وتكـون مخفية تحت بطانة الساتـان، وربما بين رقائق ورق العلبة ذاتها. كانت العلبـة فائقة الجمال، فلم أجسر على تمزيقها، واكتفيت بالتفسيـر الـذي توصلت إليـه. ولفت نظري قبـل أن أغلق النور وأنـام، أن العلبة مكتوب أسفلها «صُنعت يدويا في تشانج راي».

كانـت «تشانج راي» التي مررت بها مرة وأنـا أتجول في شمال تايلاند مدينة مريبة، طالما اعتُبرت بوابـة «المثلث الذهبي»، الذي يضم منطقة حدودية تتوزع بين لاوس وبورمـا وتايلاند، وكانت تعتبر عاصمة تجـارة الأفيون والهيروين في شرقـي آسيـا، قبـل أن تُجبَر علـى تحويـل نشاطها إلـى زراعة الخضـر والزهور والصناعـات الصغيـرة. ولعل تفكيـري في «تشانـج راي» قبل نومـي هو الذي جعلنـي أحلـم بأنني أهـرب من مطـاردة غامضة في حقـل واسـع، تغطيه زهور الخشخاش الحمراء والبيضاء الهفهافة، ثم تضيق أمامي فرص الهروب؛ إذ تتحول أعـواد الخشخاش إلى أسيـاخ فولاذية صدئة، تحاصرني، وتصـدر رنينا متداوما وأنـا أحاول اجتيازها بيأس، بينما شعور بصعوبـة التنفس يتصاعد داخلي فأحس بالاختناق بشدة، وأستيقظ.

كانـت الغرفة مظلمة، وهنـاك دقات جنونيـة على الباب الفاصـل بين غرفتي والغرفـة المجـاورة، لكننـي لم أفـزع على الفور كمـا ينبغي لذلـك. ثمة ما كان

يطمئنني بعض الشيء، فأنا أتوجس عادة من مثل هذا الباب، وأشدِّد على إيصاده تماما قبل أن أخلد إلى النوم، بل أعمد إلى وضع إحدى المناضد وراءه، وأثقلها بأقصى ما تحتمله من حقائب، وأدعم ذلك بكل ما يمكنني تحريكه ودفعه من مقاعد أو كنبات أو كوميدينو، وهذا ما فعلته بالأمس. كان ساكن الغرفة المجاورة تركيا يشتم بألفاظ نابية أعرف بعضها، وفي لحظة سكون ما بين دقه على الباب وشتيمته التقط سمعي صرير الجندب، استغربت لهذا الانبعاث غير المتوقع للصرير في ظلمة الغرفة، التي لم تكن تتيح أي ضوء لتشغيل الدائرة المعتمدة على خلية كهروضوئية كما كنت أُرجِّح.

أشعلت مصابيح الغرفة كلها، ورحت أبحث عن علبتي الجنادب النحاسية، لم أجد إلا واحدة، وأخذت أمعن في تذكر المكان الذي تركت فيه الأخرى، التي كنت أتفقدها قبل أن أنام. أين تكون قد ذهبت، ومكونات غرف الفنادق محدودة لا تضيع بينها علبة واضحة الألوان كهذه؟ أبحث فلا أجد شيئا، ويتحول الصرير إلى صوت حاد، مؤرِّق وممزِّق، جعلني أحتمل هياج التركي وشتيمته الآتية عبر الباب الموصد، ثم لاحظت أن ضوضاء أخرى تنبعث من الردهة الخارجية.

فتحت باب غرفتي مواربا لأطل، وسرعان ما تراجعت في فزع؛ كان معظم نزلاء الغرف المجاورة خارج أبواب غرفهم في ملابس النوم، يتصايحون بالشتائم متعددة اللغات، ويلوحون بقبضاتهم، بينما ظهرت وراءهم عبر الأبواب المواربة بعض بنات الهوى، مطلات برؤوسهن مهوشات الشعور، وأعناقهن، وأكتافهن، وشيء من صدورهن العارية.

أدركت الخطر الذي يحدق بي. فلا شيء أشرس من رجال ثملين وهائجين بُترت انطلاقات نشواتهم المتأججة، لابد أن صرير الجندب أزعج جاري وأطار نشوته، فثار جنونه، وأزعج دقه المجنون وصياحه الآخرين، فانتفضوا بدورهم في غضب إضافي مجنون.

اشتعـل عمق الليل بهذا الصخب الجنوني، وأسرعت أضع السرير خلف باب الغرفـة الرئيسي؛ خشية أن يفتحه أحد الرجـال الثملين، لكن أمر الاستسلام أتاني مـن داخل الغرفة نفسها، فـإدارة الفندق التي لابد أن أحد الرجـال الغاضبين، أو خـدم الغرف، أو مراقبي الطابق قد اتصل بهـا، أرسلت مجموعة من العاملين إلى غرفتي، ولما دقوا الباب ولم أفتح اتصلوا بالإدارة التي اتصلت بي، قال المتحدث إننـي أخالف شروط الإقامة بالفندق بإزعاج جيرانـي، قلت له إنني لا أزعج أحدًا وليـأت ليعاين ذلك بنفسه، فطلب مني أن افتح الباب لرجال الفندق؛ ليتأكدوا من ذلـك. ومـا إن شرعت في فتـح الباب حتـى فُوجئـت باندفاع الرجـال الثملين الهائجيـن للدخول مع رجال الفندق، فأسرعـت بصِفق الباب، وأمّنت إغلاقه من الداخل، ثم جلست وسط الصرير القريب والتصايح البعيد، أفكر متوترا بالأدوات التـي أدافع بها عن نفسي إذا ما هاجموني، وأفكر في ضرورة ترك الفندق التماسًا للأمان.

لـم أنتظـر أن تعـاود إدارة الفندق الاتصال بـي، بل بادرت أنـا للاتصال بهم وقلـت إنني مهدد بالقتل من السكارى الغاضبيـن، وإنني لن أخرج من غرفتي إلا فـي حماية الشرطة. كنت أقدِّر أن مجيء رجـال الشرطة في زيهم الرسمي يمكن أن يـرد ع اندفاعـات العدوانية في الرجـال الهائجين. جمعـت أشيائي من الغرفة وجهـزت حقيبتـي، وارتديـت ملابس الخـروج، ولم أسمـع وأنـا أنتظر مجيء الشرطـة – علـى الرغم من استمـرار الصخب مـن حولـي – إلا صرير الجندب الضائع الذي هجتُ أفتش عنه.

www.ibtesama.com Exclusive

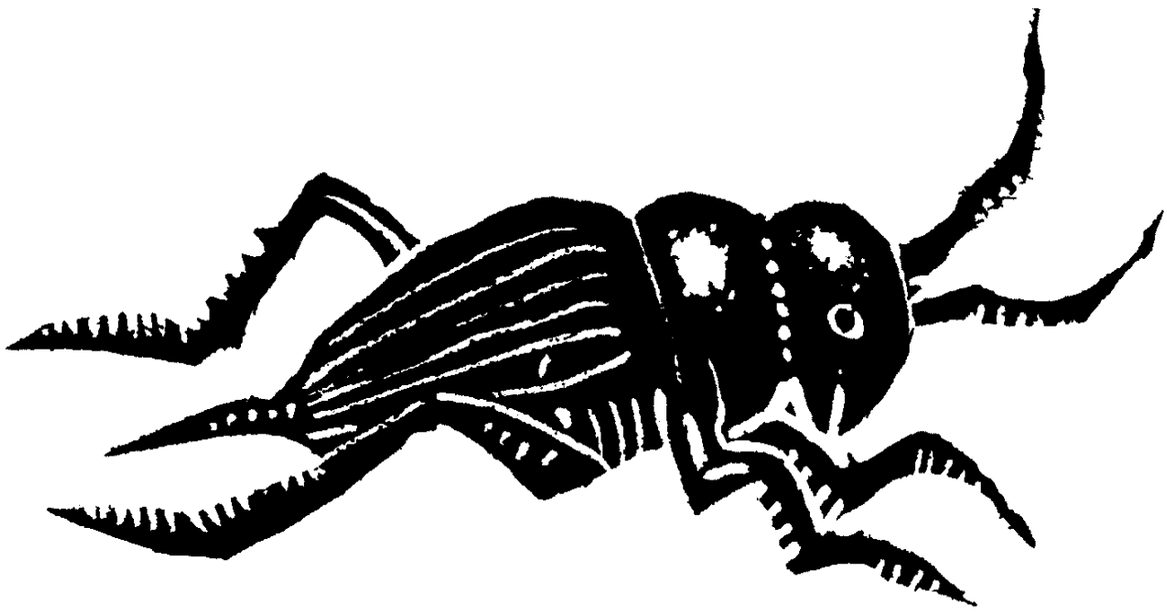

أزحت اللوحات المعلقة على الحائط، ورميت بالمقاعد إلى إحدى الزوايا، وقلبت الفراش عن السرير، ونزعت أدراج المنضدة من أماكنها، وكدت أنزع أبواب الخزانة وأنا أفتحها عن آخرها، ولم يكن هناك إلا الجندب في العلبة المغلقة. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أقبل ثلاثة من أفراد الشرطة لاصطحابي إلى فندق آخر، ولم أنس أن أضع علبة الجندب المغلقة في جيب قميصي وأنا أغادر.

عثروا لي على حجرة في فندق قريب من فنادق شارع «سوخومفيت»، يسمى «أمباسادور»، فندق كبير عتيق تحيط به حدائق نباتات مدارية مترفة الخضرة، لاينقطع عنها الضوء المنصب من مصابيح عالية قوية، تحاكي ضوء النهار، وتعمل تلقائيا مع غياب ضوء الشمس. كنت جائعا ومجهدًا حتى أنني فضلت البقاء في مقصف البهو، المطل على واحدة من هذه الحدائق الداخلية، لأحتسي كوبا من الشاي وأتناول قطعة من الكعك، نهضت إلى مشجب الجرائد في ركن المقصف، وجلبت مجلة ملونة باللغة الإنجليزية، استوقفني فيها موضوع مصور تحت عنوان: «تشانج راي.. ذكريات الأفيون»!

كان الموضوع يتحدث عن «متحف الأفيون» الذي افتُتح في تشانج راي بعد حظر زراعته وتجارته على أرضها، وهو متحف صغير يحكي عن زراعة الأفيون

وتصنيع الهيروين، وطرق وأدوات التعاطي، والمضار المختلفة على البشر، ويعرض لكل ذلك بحشد من الصور والأدوات والمقتنيات النادرة. وإضافة إلى الحديث عن المتحف كان هناك تأريخ لانتعاش تجارة المخدرات في المثلث الذهبي، وهي منطقة حدودية تتشارك فيها كل من لاوس وبورما وتايلاند، والتي شهدت فورة مالية ملحوظة مع ازدهار هذه التجارة أثناء الحرب الفيتنامية، لكن بعد انتهاء الحرب، ومع إحساس الولايات المتحدة بأن خطر هذه التجارة وصل إلى عقر دارها، وراح يفتك بالشبان الأمريكيين أنفسهم، مارست أمريكا ضغوطها لحظر زراعة وتجارة الأفيون في المنطقة، ورحبت تايلاند بذلك مقابل مساعدات للمزارعين، تدعم تحولهم إلى زراعة الخضر والزهور والصناعات التقليدية الصغيرة. وحدث التحول، لكن الدعم الموعود لم يصل، فعاد نشاط المخدرات وإن بطرق سرية، ومع هذا النشاط السري وُلِد رافد جديد علني هو المصنوعات المزيفة، والمزيفة بإتقان بالغ لم يستثن شيئا، ابتداء من بناطيل جينز ليفايز، ولي كوبر، وحقائب ديلسي، ومطواة الجيش السويسري، حتى ساعات الرولكس والكارتييه، وعطور الشانيل، وأدوات مكياج ماكس فاكتور وكريستيان ديور، وإكسسوارات إيف سان لوران وغيرها.

حضر الشاي وقطعة الكيك، فرحت أرتشف وأقضم بآلية، دون أن أكف عن المطالعة ومشاهدة الصور، لكنني نسيت الشاي والكيك تماما، عندما غرقت في قراءة إطار داخل الموضوع، على صفحة كاملة، عنوانه: «ميراث الحرب المنسية»، أشاروا في نهايته إلى أنه مأخوذ عن كتاب للأمريكي «جوي كامينجز»، يسرد مستشهدا بكتاب وثائقي لأمريكي آخر هو «كريستوفر روبنز»، وقائع عملية سرية ضخمة، انخرطت فيها المخابرات الأمريكية تحت اسم (كودي) هو «طيور الغداف»، التي تعني نوعا من الغربان السود النهمة. ولقد استمرت هذه العملية من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٣، دون أن يدري العالم عنها شيئا. فبعد اتفاق جنيف الموقع عام ١٩٦٢، بين الولايات المتحدة وفيتنام

الشمالية، والقاضي بإيقاف القصف الأمريكي المروع للاوس، مقابل التزام كل الأطراف بعدم وجود أي من قوات المتحاربين على الأراضي اللاوسية، وتعويض خسائر لاوس بمساعدات أمريكية مناسبة. قامت المخابرات الأمريكية بتكليف حشد من الطيارين الأمريكيين العملاء السريين لمخابراتها المركزية، وألبستهم ثيابا مدنية؛ ليقودوا طائرات شركة «أمير كان إير لاينز» المدنية الشهيرة. وتحت ستار نقل المساعدات راحت هذه الطائرات تنقل الأفيون والهيروين في تجارة سرية، كانت تدر على الولايات المتحدة ٢ مليون دولار يوميا، وهو مبلغ يغطي في يوم واحد، كل المساعدات التي قدمتها أمريكا إلى لاوس على مدى سنوات. أما بقية عائد هذه التجارة، فكانت تستخدم في تغطية نفقات العمليات العسكرية للجيش الأمريكي في فيتنام. كانت عملية «الغداف» من السرية إلى درجة أنه لم يكن يشار إلى مكانها إلا بعبارة «مسرح العمليات في الجانب الآخر»، وكان الطيارون الأمريكيون عملاء المخابرات المركزية مجبرين على حمل حبوب صغيرة من سم «شل فش» القاتل، في جيوب سرية داخل ملابسهم، لابتلاعها حال وقوع أي منهم في الأسر؛ حتى لا ينكشف سر هذه «الحرب المنسية» كما أسماها التحقيق!

شاردا وضعت المجلة على المقعد الخالي إلى جواري، وببطء رحت أحتسي الشاي، الذي برد وألتهم ما تبقى من قطعة «الكيك»، التي لم يكن لها طعم، ولم يخرجني من شرودي إلا الإحساس بشيء ما يتحرك على عنقي، مددت أناملي فعثرت وأنا أنتفض واقفا وصارخا على جسم صلب، سرعان ما ألقيته على الأرض. كان جندبا نحاسيا، بينما العلبة الصغيرة وجدتها مفتوحة وخالية في جيب قميصي. فما الذي فتحها؟ وكيف غادرها هذا الجندب النحاسي؟ وبأي طريقة صعد إلى رقبتي؟

بينما كان بعض رواد المقصف ينظرون إليّ باختلاس ودهشة؛ في أثر الصرخة التي أفلتت مني، التقطت الجندب ووضعته على المنضدة، وعلى صفحة الرخام

الداكـن رحت أراقب الجندب البراق، الذي انكببت عليه بأقصى اقتراب ممكن. كانـت أقدامه الدقيقـة العديدة المذهبة تتحرك كلما شعـر بالسكون، وتسكن مع أصغـر حركـة تبدر منـي، ولو من طـرف أصابعـي. التقطت الشوكـة والسكين ورحـت أعمـل، فصلت أجنحـة الجنـدب المذهبة فظهـر تحتها جسمـه البني الأسـود، وفصلت الصدر عن البطـن؛ فانكشف تكوينه الحـي وهو يدور، يدور مرتاعـا برأسه ونصف جسمه المقطوع، بينما ذرات الطلاء المعدني تتساقط عنه، رمادا نحاسيا دقيقا، يتناثر على صفحة الرخام الأسود المُعرَّق بالخضرة. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

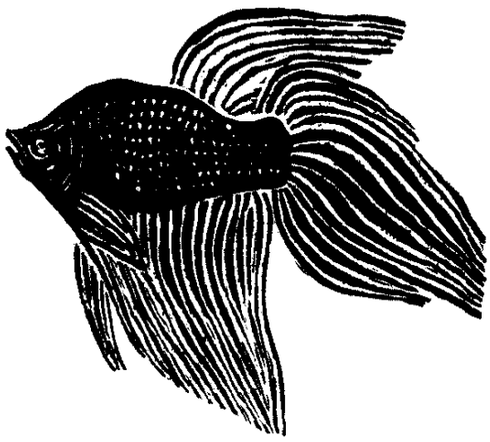

● رُبّ كبيرٍ هاجمه صغير.. وفي البحور تغرق البحور. (عن الجاحظ عن راجز ـ كتاب الحيوان)

كان يطارد فراشة في البحر

على حافة الماء، في وقت خلو الشاطئ من البشر، في الصباح الباكر، قرب الفجر، وعندما يكون البحر في نهايات الجزر، مكثت أرى الرجل على كرسيه المتحرك، يدفع عجلتيه بقوة يديه الباقيتين، يطبع على الرمل المبتل خطين غائرين، يتوازيان ويتقاطعان، يملؤهما الماء حينا وحينا يتركهما فارغين، وما هي إلا دقائق حتى يصعد الماء على دائرتي الإطارين. يبدو المقعد وكأنه يغرق بنعومة مع ارتفاع مياه المد، لكن شيئا مفاجئا ينتفش أسفل المقعد، ويجعله يطفو كزورق يعلو ويهبط فوق الماء، إنها وسادة هوائية زود بها الرجل مقعده، يضغط زرا تحت يده على مقبض المقعد الأيمن، في اللحظة المناسبة، فيعوم به المقعد ويتأرجح، وهو يقوده حيث يريد، يتقدم أو يتقهقر، ينعطف يمينا أو يسارا، فالعجلتان تحت يديه كانتا تتحولان إلى دفة وعنفات رفاص معا.

هو الآن يركب البحر لكنه لا يوغل فيه، بل يوغل في ذكرى يوم محدد من زمن بعيد حكى لي عنه، حين كان يذهب إلى البحر على قدمين سليمتين، حيتين، ويخوض في الماء حتى يصل الماء إلى صدره فيعود، لكنه يومها لمحها في الماء، فشملته رعدة مفاجئة وسخونة، وغاب عن ذهنه الصفو واضطرب الماء.

امتدت يده غائصة لتمسك بهـذه «الفراشة»، زاهية الصفرة، وهو لم يتحسب لذلك.. لم يتحسب للماء الذي بدأ في أوبة المد يعلو، لم يتحسب لخبرته الضئيلة بالبحـر، هو الذي لم يجرؤ على النزول إلى البحر إلا والبحر في جزر، ربما أغرته هـدأة المـاء الحسير، الذي مكـث يطفو على سطحـه سائحًا وقتـا، يتفرج على ممالك القيعـان التي رق فوقها ماء الجزر الفيروزي وشف. وربما غرّته هيئة هواة الغوص التـي يرتسم فيها بقناع ذي نظارة للماء، وأنبـوب للتنفُّس، وبندقية حربة «هاربـون» تتعلـق بالكتـف. وربما أغـارت على صوابـه تلك الصُّفـرة صارخة الجمـال، للسمكـة الفراشة التي وضح أنه لـم يتخيل لها وجودًا فـي غير الأفلام الملونة لقاع البحر الأحمر، وصور الكتب الصقيلة عنه.

اضطـرب الماء، وزاغت السمكة، لكن لـم يفلتها البصر.. هي تهرب مبتعدة، وعينـاه تتعقبانها في هذا الابتعـاد، أذرعه تعمل في المـاء، وأقدامه تتبادل ضرب صفحتـه، ورشاش الاندفـاع يتطاير ثم يتساقط، فينقـر ظهره الذي أدفأته الشمس ببـرودة وبلـل، تستبد بـه الشهوة لامتلاك فراشـة البحر، وهي تعانـد، استحضر وجـوده كلـه في تلك اللحظـة، وحبسه في قمقـم السمكة الصفـراء أمامه: «لن أفلتهـا» يضـرب بذراعيه، وقدمـاه تشتعلان بالرفس، كرفاصـات زورق مطارد، والحيـوان المغلول فـي بدنه يخرق أغـلال الكبح بجمح مجنـون، ترميه سرعته بالانتشاء فيسرع أكثر: «أنا لك يا فراشة البحر، أم أنك لي، إني لا محالة بالغك». وراح الأنبوب يحمل إلى فمه مع الهواء ماءً، وهو ما بين شرب الماء الثقيل المالح والتنفس والسعـال سهم تجـاوز وتـر القـوس، لا شيء غير الاصطدام يوقفه. نسى بيته الذي تعـب في تأثيثه على الشاطئ، وعروسًا كانت تنتظره هناك، نسى سريره الـذي لا يرتاح في غيـره، والناس، وما كان من أمره ومـا سيكون، وانطلق سهما يمرق فـي دائرة النـزوة، ضربة الذراع تغـري بضربة أشد، ولطمـة القدم تستثير لطمات أقوى، وكأن زحفه عائما على الماء قد استحال إلى حرث عربة مجنزرة، لأرضـ تختلـط قسوتها بالليـن، أو لينهـا بالقسوة، لا يدري، فقـط يحس بكونه يغالـب الماء، وذراعاه تنطلقان وتلطمان، ثـم تشقان وتدفعان في غوصهما قوامه

المتثاقـل: «إني أطـوي الماء.. إني أطوي المـاء» ظلت تتردد فـي داخله بانتشاء وحشـي وهو لا يعرف، أو لا يريد أن يعرف: هل يحارب الماء كان، أم كان يروم فراشـة البحر؟! وكلما ركز تفكيره في جسده المشتعل بالضرب والرفس، يُختزل الوجود إلى قيعان تمضي إلى الوراء، إلى الوراء، وسمكة صفراء أمامه تهرب، يتيه شاعرًا بنفسه مركز هذا الصخـب ومحدثه، فيتمادى، ويتشهَّى لو يتمادى مزيدا، لكنه يحس بشيء ما يعيق إطلاق تماديه، ويثقل جانبه الأيسر.

تذكـر بندقية «الهاربون» في كتفه اليسرى، وتذكـر الحربة المتأهبة للانطلاق منهـا، وطاف بذهنـه خاطر قاتم، تخيل فراشة البحر مرشوقـة بسن الحربة، ميتة، تفقـد بهاء صفرتها، تتعكر، تتساقط قشورها وتغـدو مُرمِدة زلِقة، وأحس بالطعم المُغثي والمر لسمك البحر الأحمر الملون النيئ في فمه، فوهن في العوم، وجعله التفكيـر في ذلك يفيق مما هو فيه، ويسـأل نفسه: « ما هذا الذي يحدث؟ ما هذا الـذي يحدث؟» وتجتـاح كيانه لحظة من جـزع غامض، يكف عـن السباحة، ويمكـث طافيا بغير حـراك، ناشرا جسده على الماء، ثم برهبـة وتعثـر، وكأنـه يفعـل ذلك للمرة الأولى، يسبـح بيمناه منفردة، تاركًا قدميـه ترفسان الماء ببطء، تصعـد كتفه اليسـرى ويهبط وسطـه، ويستدير شبـه واقف في المـاء، حتى يغير اتجاهـه، يصير في مقـدوره أن ينظر إلى الشاطئ، ولا يجد شاطئا هناك، لا شاطئ علـى امتـداد البصـر، ولا قمـة للجبـال الحمـراء تلـوح في الأفـق! إنهـا عشرة كيلومتـرات – على الأقل – من الشاطئ، غمرتها ميـاه المد، لا شيء هناك سوى المـاء، الماء، الماء. موج أزرق داكن، يتلاطم، يعلو ويهبط والقلب يغوص، أحس بخـوف غير بشـري، وتضـاؤل، واستعر جنونًـا يسبح راجعًا، وهـو لا يوقن في صـواب اتجاه الرجوع، يسبح، وفي لحظـة تومض في ذهنه فكرة أن يسبح بعض الوقـت، ويطفـو البعض الآخر، حتـى لا يدركه الكلل، لكنه لمـا شرع في الطفو وجـد الجسد يتثاقـل، وكان البحر فاغـرًا، والماء يوشك على الابتـلاع؛ فأسرع مرعوبا يسبح من جديد.

تذكر سمكة «الفراشة» في لحظة خاطفة، فاقترن تذكره لها بشعور كالخجل، وكانت هناك رغبة كاشتهاء الإجهاش في البكاء تراوده، ولا يستطيع التوقف عندها، بينما هو كالمسعور، يمضي في العوم، وبآخر طاقة أطرافه الأربعة. يستريح هنيهة وخده على صفحة الماء، فيلمح رشاش الرفس عند قدميه اللتين لم تتوقفا، كأنما بإرادة ذاتية منهما: «إنني سأنال النجاة.. سأنال النجاة» تعبر روحه كهبة عطر في مرأى الرشاش، لكن تردفها على الفور: «هل سأموت الآن؟» ويشعر بالأسف والحسرة، يرى جثته طافية فوق الماء يرميها الموج مع الزبد على الشاطئ: «من يندبني؟» يتعلق وجه عروسه ثابتا فوق الماء لحظة ويتلاشى كبخار يتبدد، ثم يرى أمه في السواد، يعتصرها الدمع ويسحقها النحيب.

كان صوت ضربات ذراعيه، ورفس قدميه يأتيه متماوجًا بين الضجيج والخفوت، ثم انتبه إلى صوته إذ وجد نفسه يئن مع كل ضربة ذراع، وكان هناك ألم كانغراس سكين في اللحم والعظم، يعصف بكتفه اليسرى، تذكر أنه لا يزال يحمل «الهاربون» في هذه الكتف وسأل نفسه: «هل أرميه؟» وما كاد يمد يمناه إلى كتفه دون تهيؤ، حتى هرب منه الهواء ووجد نفسه يغطس، بل يُرشق غائصًا، وقدماه تشدان عوده إلى أسفل، مرت به خاطرة أن يبحث بأصابع قدميه عن القاع، لعله يقف عليه ويستريح قليلا، وكان هلِعًا وهو لا يجد أي قاع هناك.. «هل أموت الآن؟» تلبث به ارتياع، وشعور موغل بالوحدة وهو يفتح عينيه في الماء، يرى الزرقة والاخضرار المشربين بالضوء، ويرى فقاعات مضيئة، تنبثق وتصعد وفيرة من حوله إلى السطح: «هل أموت؟» تردد اسمه مهتوفًا بأصوات يعرفها، وأخرى غريبة، وكان مقترنًا بلفظة: «مات، مات، مات» وتعجب أنه لا يشعر بالألم، وقد كان مجرد دخول الماء في أذنيه يجعله يصرخ، تنبه إلى كونه يبتلع الماء ولا يتنفس، وفكر في أن ذلك كفيل بشده أكثر نحو القاع، فهو إذ يشرب الماء يثقل، ثم صفا ذهنه صفاءً غريبًا وتملكته لحظة مغرقة في النعومة واليأس: «سأموت. سأموت».

www.ibtesama.com Exclusive

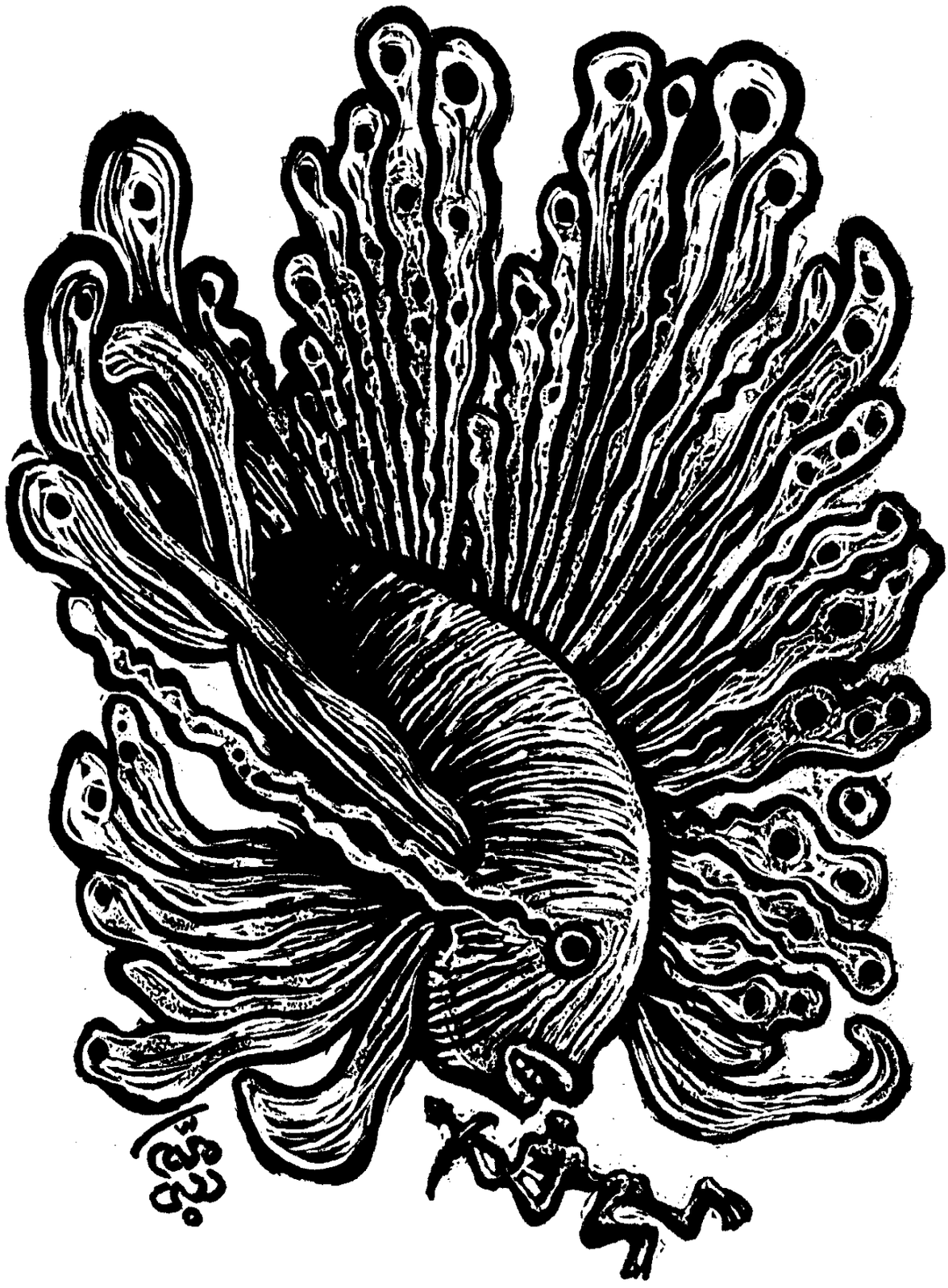

راح يبتلع مزيدًا من الماء، بينما غوصه باتجاه القاع يتبدَّى كهبوط ذرة من غبار في حزمة ضوء، يسمع البحر الداوي برنين ليس له صدى، ويتردد اسمه في صفاء الذهن مقترنا بلمسة أسيفة وساخرة: «هه. هه. هه». كأنها تُشيِّع الاسم، وتنداح معه مبتعدة في آفاق الماء المشرب بالضوء. هه. هه، لكنها ما تكاد تتلاشى حتى يشتعل خوفًا، خوفًا هائلاً من مصير الاختناق.. قدَّر أنه سيلبث في

عـذاب مرير، حتى ينتهـي كل شيء، فاندفع يضرب بقدميـه وذراعيه لعله يصعد: «لا أريـد أن أموت مختنقًا»، ويضرب صاعدا، يضرب، يضرب حتى انقطع دوي البحـر وشارف علـى الهواء فتنفس، وجد نفسه يعاود السباحـة دون أن يسمع أو يـرى، أو يرى ويسمع دون أن يفقه غير أنه يعوم، ويعوم بلا يقين، وفي هذا العمى والصمـم شاغلتـه أمنيـة ألا يمـوت مختنقًا بالمـاء، بل يموت بأسـرع ما يكون؛ ليفلت من عذاب الاختناق.

عـاد إلى ذهنه ذلـك الصفاء الغريب، الذي تجلّى له لحظـة تحت الماء، فكان يـرى ويسمع.. يرى تجذيـف أذرعه وتلاطـم الموج، يسمـع اصطخاب قدميه ورغـاء البحر، ويسمع أصداء القـرار في نفسه: «سأموت بإرادتي – خطفا – ولن أموت مرغما بالاختناق».

عمـد إلى الميل برأسـه تاركًا قدميه تصعـدان، وكان يستطيـع تخليص بندقية الحربـة مـن كتفه بيسر تحـت الماء. تنبثق الفقاعـات المومضـة الخضراء غزيرة وتصعد من حوله، وهو يغوص برأسه إلى أسفل، تهش روحه لهذا الوميض، وذاك الاخضـرار، وتتهـاوى إذ تهش، لا طاقـة لي بـأن أسبح كل هـذه الكيلومترات المحالـة: «سأمـوت بضربة واحدة تفقدني الوعي، بدلا مـن مكابدة ذلك الغرق الغامض». كان يفكر في توجيه فوهة الهاربون إلى رأسه، ويضغط لتنطلق الحربة، تخترق الحربة جمجمته إلى المخ، وتمزق تلافيفه فلا يدري بألم ولا باختناق.

كانـت هناك ثلـوج تتجمد فـي مفاصله، وألم لـم يعرفه أبدا، يجتـاح كتفيه، وعضديـه، وفخذيـه، والرسغين، قارصـا وعاصفا ويفوق الاحتمـال، يدفعه إلى خاطـر الموت اليسير، وهو يهرب من عسر النجاة: «ليس في هاتين الذراعين ولا تلكـم الساقين من قوة». واسترخى، فواتاه الصفـاء وعاد يميل غائصا برأسه مهيئا بندقية الحربـة أمامه.. أحس وهو يهبط بفوهة الهاربون تلامس شعره، فارتجف، تـردد في الضغط، وهو كمن يوشك على البـكاء، تختلج روحه: «أهكذا ضاعت منـي الحيـاة وأُسـاق إلى الموت بيـدي؟» كانت تيـارات المـاء تؤرجحه، وكل ماعاشـه يمر أمامـه في شريط من الصور بغير صـوت، رأى أناسا لم يتذكرهم منذ سنيـن، وطالع مناظر لم يكـن يحسبها باقية في نفسه، رغب فـي الضحك برهة،

ورغـب عنه فـي أعقابها، ولم يعـرف إذا ما كان يبكي أم يضحـك، ثم اعتُصرت الصور وانضغطت أمامه، فقطرت سوادًا وهو يتوفّز للضغط.

بـرق الماء أمام عينيه، أبيض، ثم أخضر، ثم انفجر فيه اللون الأحمر وتكاثرت الفقاعـات الدامية المضيئة، لقد لسعت ظهره وخزة، وخزة خاطفة، وشعر بساقيه بغتة، رخوتين ثقيلتين، وكانت يداه الخاليتان تضربان سطح الماء: «إنني لم أمت! لمـاذا لم أمت!» وتنفس وهو يطفو، شهق هواء الدنيا، وزفر ارتياعًا، لقد أخطأت الحربـة دماغه لكنهـا أصابت ظهره، نفذت في عموده الفقـاري، وشلت ساقيه: «سأمـوت عاجزًا مختنقا»، وشعر بالأسـف وبالسخرية، والماء يتكاثر من حوله، وهو يضـرب بذراعيه، يسبق امتزاج الماء بدمه حينا، وحينـا يسبقه الماء الدامي، فيرى حياته مسفوكة في الحمرة، ويلمح بين فرجات الحسرة والذهول مساحات دائريـة ناعمة منه تقتـرب، أبصر أسنامـا داكنة تمرق منزلقة تحـت هذه الدوائر، ولمـح عينا خرزية قاسية التحديق، وفكا مطروسـا بالأسنـان، فوجد نفسه يشتعل ضربًا في الماء بذراعيه، بذراعيه وحدهما.

كان يجـر ساقيه الميتتين، وأحس بالحربـة مازالت مستقرة بين فقرات ظهره، تنشـر فـي عظامه ألما وخدرًا، وهو كالمجنون أو أنه جُـن، يسبح مبتعدا عن نذير الزعانـف السوداء التي برزت على السطـح، «أسماك القرش تجذبها رائحة الدم، لـون الدم»، برقت في ذهنه الخاطرة، فأبصر دون أن يلتفت أفواه القروش النهمة. رأى عيونـا لا تطـرف، وصفوفا من الأسنان المثلثة الحـادة تترصد لحمه.. سمع زقزقة وصريرا، سمع أصواتا كأنها حراك مفاصل صدئة، فاشتعل يسبح هاربـا من فـك سينهشه من الخلف فـي لحظة، وسمع الصوت ثانيـة كالصفير، فمرق طائر مدهوش يخرج من جبينه، والتفت التفاتة لا يعرف كيف واتته على الرغم من هذا العجـز المرير والرعب، كان يرى ولا يستطيع أن يفهم، يرى الدوائر الناعمة تتبعه ويـرى العيون، وبين العيون استغرب وجود نافـورات تتلألأ في الضوء. سحابات مـن بخار كثيف ترتفع في استقامة، ثم تتبدد ككرات ضبابية مفضضة منداحة إلى الخلـف، كان يهـرب إلـى الأمـام بينمـا تتقاطع داخلـه دهشات بارقـة: «كيف أستطيـع؟ كيـف استطعت؟». وكانـت لحظة جنون لا شك، تلـك التي امتد فيها

الشاطئ على مرمي بصره.. رأى جبل «أبو دخان» يقترب متماوجًا في الأفق، رماديا أزرق، أحمر، أصفر، ورديا، وتحته أبصر «شاليهات» الغردقة الخشبية القديمة متناثرة يركب بعضها بعضا، ثم رأى آحادا من الناس يصرخون متنادين، وهم يسرعون إليه، أحدهم كان يركب طوفًا ويضرب في الماء بمذراة طويلة، وآخر يغوص في الماء الذي لم يبلغ وسطه، يتبعه اثنان لايبلغ الماء ركبتيهما، «آآآآه»، صرخ فسمع صوته كما لم يسمعه قط، كانت صيحة ندم بدائية تأتي من أغوار سحيقة في كيانه، وأعقبتها أصوات الزقزقة، الصرير، الصفير، وبرقت في ذهنه كلمة «الدرافيل» فالتفت مخطوف الفؤاد وراءه، رأي الذيول ذات الأهلة تضرب في الأعالي، ثم طابور الأخطام والظهور اللامعة الزلقة تتعقبه، صف الدرافيل المهيأ بالغريزة إلى رفعه في دفقات حتى لايهوي، كان يفطن بتقطع أنه نجا: نافورات الزفير، الذيول ذات الأهلة، دوائر الماء الناعمة، الجبل، الشط، الناس، الطوف، المذراة.. «إنهم آتون لانتشالي». أيقن أن الدرافيل ستحمله إن عز عليه الطفو، وسيبلغه البشر إن كلّت أذرعه، واستغرب كيف سبح كل هذه المسافة بذراعيه، بذراعيه وحدهما بعد أن أصاب ساقيه.

رأى النوارس تُحلِّق فوق مياه الشاطئ، وبطونها البيضاء تومض بفيروزية لون الماء، وكانت أصواتها مرتفعة ومؤلمة، ثم فوجئ بيديه تصطدمان بالقاع الرملي، وكان يكفيه أن يعتدل جالسا في هذا الماء الضحل، حتى ينال النجاة.. لمس مقدم الطوف جبهته فأجهش متذكرا ساقيه، انطفأت جذوة بدنه، وكأنها طاقة محرك حكيم كف عن الدوران، يستريح عندما بلغ المدى ولامس الحافة، ثم غاب عن الوعي بينما كانت تتلقفه الأذرع.

والآن، الآن يتذكر ذلك كله، ويضبط تذكره على إيقاع ساعة غامضة في كيانه، تجعله وهو يستدعي اللحظة الختامية، لحظة غيابه عن الوعي بين الأذرع منذ سنين، ينتبه إلى هبوط الماء مع انحسار المد وانبساط الجزر تحت مقعده، يدرك أن عجلات المقعد تستقر على الرمل المبتل، فيمضي راسما على الرمل خطين غائرين، يكفان عن التقاطع وهما يتقدمان متوازيين، يبتعدان ويبتعد هو، قبل أن تبزغ الشمس، ويتقاطر الناس على الشاطئ. ■

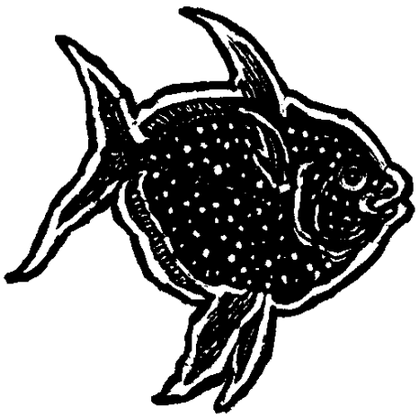

● يظن معظم الناس أن الأسماك صماء، لكنها ليست كذلك، فالأسماك تستطيع أن تسمع أصواتا هادئة، لا نكاد نسمعها، وهي تستطيع عادة أن تميز بين نغمة وأخرى، وعلى الرغم من أن الأذن في الأسماك أقل تعقيدا من تركيب آذاننا، فإن ذاكرة الأسماك للنغمات تثير دهشتنا؛ فبعد بضعة أشهر، استطاعت الأسماك أن تتذكر النغمات التي دُرِّبت عليها في التجارب، فكانت تستجيب استجابة صحيحة إلى نغمة أو إلى أخرى. وعلى ذلك فللأسماك ذاكرة قوية للنغمات، بل إنها تفضُل بكثير ذاكرة كثير من الناس.

(مونرو فوكس ـ شخصية الحيوان)

سمكـــات أرجوانيـــة صغيـــرة

حتّـى الساعة العاشرة صباحًا، ظل الضباب الرقيق معلقا في أفق هانوي، مدينة البحيرات العديـدة والشجر الوارف. كنت قد أنهيـت جولتي المبكرة ووصلت إلـى حافة بحيـرة «هوتشي منه» الهادئة الصافية، جلسـت على السياج الحجري الخفيضـ المحيط بالبحيرة، والذي يأخذ في مكان جلوسي شكل قوس واسع من الحجـر الجيـري الأبيض المصقول، يقطعه درج من الحجر ذاته، يهبط إلى سطح الماء، ويغوص فيه حتى يتلاشي.

هيـأت نفسـي لاستراحة مديـدة، في أعقـاب الجولة التي استيقظـت لها منذ الخامسـة صباحًـا، واختـرت أن أكون فـي الموضع الأقرب مـن الدرج، حيث يتوافد الناس بلا انقطاع؛ ليشاهـدوا أعجوبة «سمكات هوتشي منه» التي تتجلى

في هـذه البقعة من البحيرة، والتي كنت أتأهب لتجربتهـا بنفسي في اللحظة التي يخلو فيها المكان من الزوار.

الضبـاب الخفيف الشاسع المعلق فـوق الأرض، كان يضفي غلالة من السحر على المكان المترامي من حولي، ومن بين الأشجار المدارية الوارفة كان يمكنني أن أتتبـع أهـم معالـم هانـوي (السياسية)، دار الحكـم التي كانت مقـراً للحاكم الفرنسي قبـل هزيمة فرنسا في معركة ديان بيان فـو، ومتحف (الثورة)، وضريح «هوتشـي منه»، «هوتشـي منه» الذي رأيته أخيرًا، وجهـا لوجه، بعد انتظار طال أكثر من ثلاثين سنة.

علـى مقربة بضـع خطوات من المـكان الـذي جلست فيـه، كان هناك بيت «هوتشـي منه» الخشبـي، ووراءه الخندق الذي كانت تجتمع فيـه قيادة «الفيت كونـح»؛ لتخطـط مسارات المقاومـة الفيتنامية لأعتى قوة عسكريـة عدوانية في العالـم.. وأخيرا، علـى مقربة أمتار قليلـة من مجلسي، كانت هنـاك «البرجولة» الخشبيـة المستديرة البديعة، من طابقين، والتي خصصها «هوتشي منه» لأوقات القـراءة، واللقـاءات الشخصيـة، وأهم لقـاءات الأسبوع، عندمـا يأتي سرب من أطفـال هانـوي ليقضوا معه، هو الرجل الـذي لم يكن له أبدا أبنـاء، نهارا كاملا، كان يعده أبهج نهارات أسبوعه.

وأنـا على حافـة البحيرة، كنت كلما بدأت في تذكـر وقائع الساعات الخمس في هـذا الصباح بهانـوي، تقفز إلى ذهني لحظـة الوقوف أمـام «هوتشي منه»، النائم بسلام، وجمال حقيقي، داخـل ذلك الصندوق من البلور الصافي المغمور بالأضـواء، لقد حصلت بجهد عنيد على تصريح بالزيارة، وعبرت حاجز الحرس المسلـح الأول، ثـم الثاني، فالثالث غيـر المسلح، وانتظمـت مطيعًا، مخفيا كل توتـري فـي قلبي ضمـن طابور الزائريـن الطويل، فـي الشارع الرحيـب الممتد باتسـاع ميدان هائل أمام الضريح، مضيت كأنني فـي سرنمة، لأصعد درجًا ملتفًا خافت الأضواء، وأعبر دهليزا يشتد فيه الضوء كلما سرت قدما، ثم توقفت بلمسة

خفيفة حاسمة لصدري، وبلمسة مثلها لظهري دُعيت للدخول، فبدا لي أنني أحلق في سماء قريبة، لحلم ساطع غير معقول.

من بين عديد الأسماء «الأممية» التي كانت صروحًا في زمن صباي اليساري المتبدد، لم يبق معي غير اسم «هوتشي منه».. قضيت أربعة أعوام في الاتحاد السوفيتي، وتسكعت في الميدان الأحمر عشرات الساعات، ولم أفكر مرة، حتى من باب الفضول، أن أقف في الطابور الطويل، الذي يبتلعه باب الضريح الصخري الداكن المصقول، الذي يرقد في جوفه جثمان لينين المحنط داخل صندوق زجاجي، وزرت بكين وتمشيت طويلاً في ميدان «تيان آن مين»، على مسافة خطوات من القاعة التي سُجى فيها جثمان ماوتسي تونغ، المحنط في صندوق زجاجي أيضا، وترددت، فلم أقطع هذه الخطوات لأطل عليه.. أما هوتشي منه، فقد طرت إليه عندما برقت الفرصة، من الشرق الأدنى إلى الشرق الأقصى، باتساع آسيا كلها، وفي رحلة مضنية، لأستيقظ قرب الفجر في هانوي، متهيئًا بقلب مختلج، وبصر ندي، للقاء حقيقي خاطف، معه.

لقد أوصى رفاقه أن يدفنوا جثمانه بعد موته، لكنهم خالفوا وصيته باسم «حق الشعب في رؤية رمز حريته»، وعلى الرغم من خشونة هذا (الحق)، فإنه أتاح لي لحظة من أرقِّ لحظات عمري، فالشاعر الذي أحببت قصيدة حياته في صباي لم يخذل مخيلتي، بل فاض عليها بأكثر مما تصورت، كان شفافًا، ورقيق الجسد والملامح بشكل بديع، قسمات وديعة، وشعر فضي حريري تماما، وكان مغمضًا عينيه في طمأنينة وارتياح.. تذكرت صياغته المرهفة لمعضلة عنف الضحية في مواجهة قسوة الجلاد، تذكرت قوله للأمريكيين الغزاة: «للأسف.. أنتم تأتون لتقتلونا، فنضطر إلى قتلكم، وهو أمر محزن». نعم، أمر محزن.

تذكرت زهد حياته، وطعامه القليل، وثيابه الخفيفة، ونعليه المصنوعين من أُطُر عجلات الطائرات الأمريكية التي أسقطها رجاله البسطاء، وفكرت في أنني

ربمـا كنت على حق في الإبقاء علـى محبته، كل هذه السنين، ذكرى طيبة من أيام صبـاي المبتعدة، ولا أعرف لماذا استدعى شرودي (السياسي) على حافة البحيرة التـي أُسميت باسمه، ذكريات أبعد ما تكون عـن السياسة، لكنها جميعًا ذكريات عذبـة، لأناس فيهـم عذوبة، ولا رابـط بينهـم أوضح من أنهم بشـر طيبون، بشر بعيـدون بتكوينهم عن العنـف والتكبر، وفياضون بالرحمـة والتسامح، مواقف، ومـؤازرات، وائتناس، ومودّة، بوح، وصفح، وما إن وصلت بالتذكر إلى لطائف جدتـي، حتى انتبهت إلى خلو المكان من حولي، فلم يكن هناك أحد على الدرج الحجري المفضي إلى مياه البحيرة.

نهضـت متجهًـا إلى الدرج، وهبطـت حتى الرحبة الملامسـة للماء، ووقفت أكرر ما كان الناس يفعلونه أمامي على مدار الوقت، مقلدين «هوتشي منه» عندما كان يقبـل لإطعام السمكات الأرجوانية الصغيرة، التي رباها في مياه البحيرة. لقد اعتـادت كلما صفق لها أربع تصفيقات بيديـه أن تطفو، مشرئبة برؤوسها، فاتحة أفواهها الصغيرة، تلتقط مايقدمه لها.

صَفّقـتُ أربـع تصفيقـات، فلم تظهـر على سطح الميـاه بقربـي أي أسماك، صفقـت ثانية وانتظرت، ولم تظهر، كررت تصفيقي وانتظاري مرة ثالثة، ورابعة، ثـم أمعنت في التصفيـق بغيظ وتسارع، ولم يوقفنـي إلا سماعي لصوت متواضع النبـرة يأتي من خلفـي، يقـول بإنجليزية متعثرة علـى لسان آسيـوي: «هكذا لن تظهر».

فهمـت أن الجملة تعنـي أن السمـكات الأرجوانية الصغيرة فـي البحيرة، لن تتجلـى لي، فاستـدرت لأرى أحد حراس المكـان المدنييـن يطـل عليَّ من شرفة الطابـق الثاني في البرجولة الخشبية، استدرت إليه سائلاً: «ولماذا لن تظهر لي؟». قـال: «لأنك تصفـق دون أن يكون معك طعام لها.. أراك لا تحمل شيئا».. سألته متهكمـا: «وهـل تراني الأسماك من تحـت الماء؟» أجاب بتواضـع قاطع: «إنها تعرف.. إنها تحس».

تذكـرت أن الذيـن تجلـت لهم السمـكات أمامـي كانوا يصفقـون، فتظهر، ويلقـون إليها بطعام مـن أكياس صغيـرة، يخرجونهـا من جيوبهـم، أومن تحت آباطهـم.. وبعضهـم كان يلقي إليها بفتيت خبز من بقايا طعـام يلتهمه، كان هناك دائما طعام في أعقاب كل تصفيقات أربع.

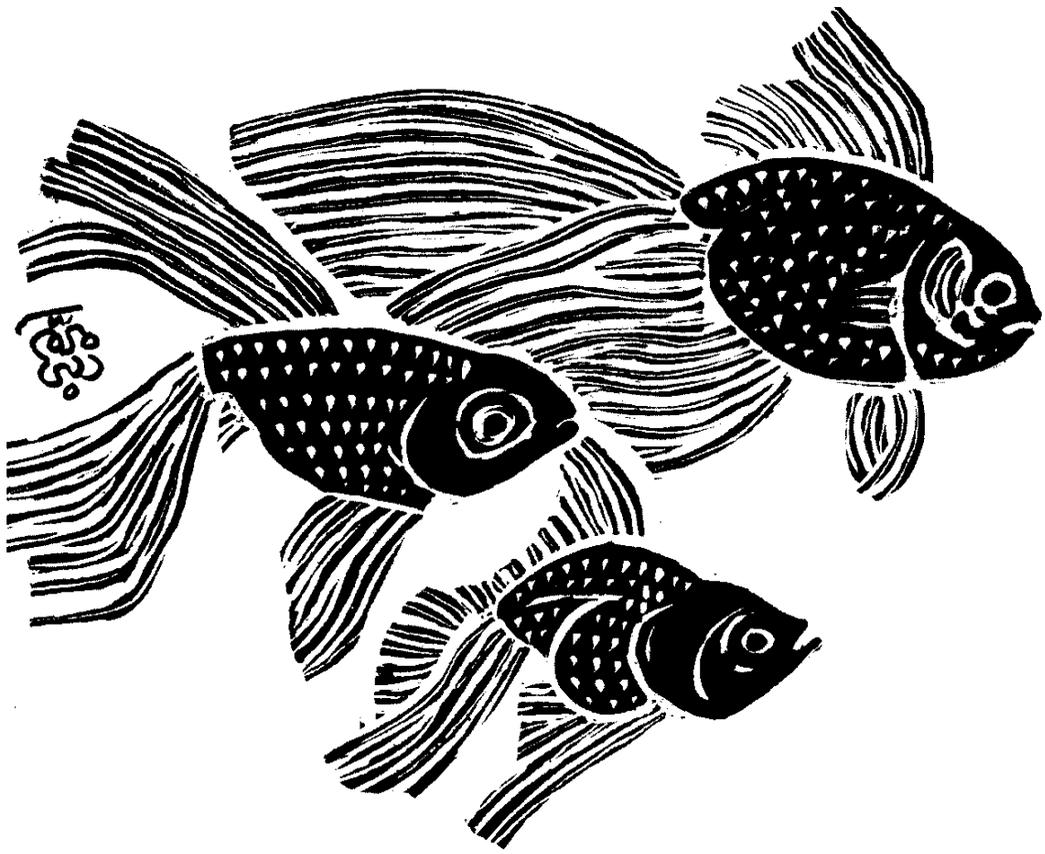

ألقيـت نظـرة أسيفة على مياه البحيرة وأنا أمضـي، وكنت أفكر في ضرورة أن أُحضـر معي شيئا؛ لأطعم به هذه السمـكات، إن قُدِّر لي أن أعود إلى المكان مرة أخرى. ■

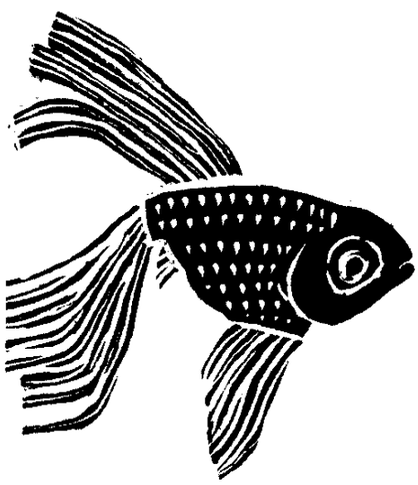

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

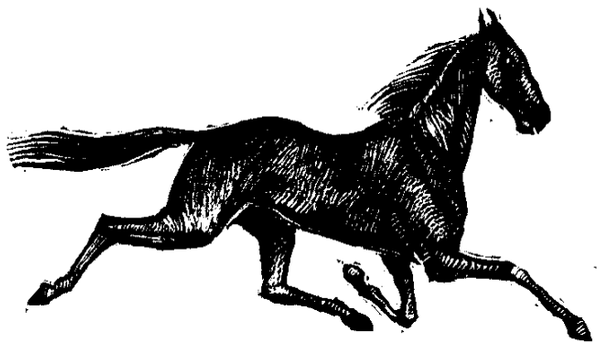

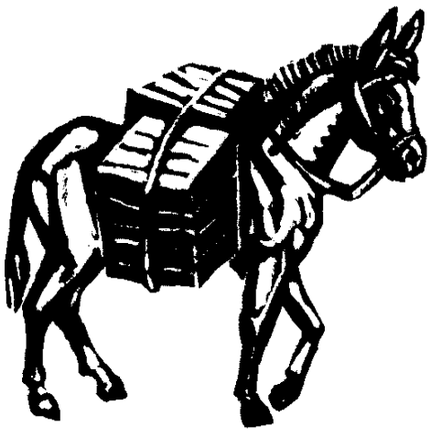

● ولما بلغ المأمون اختلاط من حال البريد، وجه تمامة بن أشرس، ليتعرَّف له ذلك. فلما رجع إليه وسأله، قال: «يا أمير المؤمنين، مررت بسِكة فإذا بغل وقد عدا على رجل عليه طيلسان أخضر، يظنه حُزمة علف، فعدا الرجل، وعدا خلفه البغل، فصحت بالرجل «اطرح الطيلسان»! فلما طرحه، وقف البغل يشمه. **(الجاحظ ـ كتاب القول في البغال)**

● عجبت لقوم إذا قيل لهم من أبوكم؟ قالوا: «أمنا فرس». **(الجاحظ ـ كتاب الحيوان)**

● البغل المتولد من الفرس والحمار، إن كان الذكر حمارا، فشديد الشبه بالفرس، وإن كان الذكر فرسا، فشديد الشبه بالحمار. ومن العجب أن كل عضو منه يكون بين الفرس والحمار وكذلك أخلاقه؛ فليس له ذكاء الفرس ولا بلادة الحمار، وكذلك صوته ومشيه. ولا شك في عقمها، لكن منهم من يقول: إن الولد لا يتعلق في رحمها، ومخه إذا طعم إنسان منه ينقص من جميع حواسه، حتى يبقى كالنائم، وتأكله المرأة لاتحبل أبدا. **(القزويني ـ عجائب المخلوقات)**

بِغـــــال

استيقظ مبكرًا كعادته، لكنه لـم يخرج من خيمة العريف الخاصة به منشرحًا، يفتـح ذراعيه وعينيه وفمه على رحابة المنظر الرائع من حوله، الجبال وهي تتوالى أمـام بصـره بتدرجات لونية فاتنـة، تبدأ بالأخضـر فالزيتونـي فالبنفسجي، حتى تتبـدّى في الأفق البعيد بلـون دخان رمادي مزرق، والوديـان المتناوبة في العمق تحـت هامات الجبال، ومسـارب الطرقات الدقيقة التي تـدور حول المرتفعات وتنسـاب فـي الأودية.. لم يؤد فرحان تمارين الصبـاح المحتفية بهواء هذه الدنيا

آخر في شـق الطرق الجبلية الصعبة، منفردة دون قيـادة بشرية، وبثبات واحتمال فائقيـن عبر الـدروب الجبلية الوعـرة والمتوارية عن الأنظـار، درّبها على اجتياز هـذه المفاوز سُيّاسُ بغـالٍ محنكون، يقطنون القرى الجبليـة المتناثرة بتباعد بين قمـم وسفوح هذه السلسلة من الجبـال، التي ترسم الحدود بين بلدين. بلد منفتح على كل شيء في جانب، وبلد منغلق على كل شيء في الجانب الآخر. تم تدريب البغـال لصالح شبكـة واسعة من المهربيـن بين البلدين، علـى الرغم من اختلاف الأنظمـة، في أحد الجانبيـن يتم تحميل البغال بالبضائـع المستوردة، والمحظور دخولها في الجانـب الآخر. تستمر رحلة البغال نصف يوم كامل، حتى تصل إلى أهدافهـا.. في البداية كانت رحلات بغال التهريـب تتم تحت جنح الظلام، لكن عندمـا تغلغلت الشبكة في نسيج المتنفذين في الحكـم، لم يعد الليل شرطا لتلك الرحـلات البكماء الثمينة.. صارت قوافـل بغال التهريب تشق دروبها الجبلية في النهـار كمـا في الليل، بل فـي حراسة النقـاط الحدودية نفسها، التـي كانت تنال نصيبهـا، إما في هيئة مكافـآت مالية منتظمة تصل إليها مـن المهربين سرًّا، أو من الإغـارة على بعض القوافل التي لا تصدُر أوامر واضحة بتركها تمر في سلام ؛ إما لأنهـا لم يُدفع عنهـا، أو لم يُدفع كفاية. كانـت المهرَبات أشـكالاً وألوانًا وكلها تتزامـن مع ما يشح أو يندر وجوده في البلد المنغلق على نفسه، معظمها مما يُمنع استيـراده من مواد وأجهزة توجد بوفرة في بيوت أهل السلطة، وأصحاب النفوذ، وكثيـر منها مثيل لمـا ينتجه هذا البلد نفسـه، وتُفتَعل الأزمات فـي توافره، أشياء عرفهـا فرحان بالمعاينـة عندما كان يتلصص هو وعساكره علـى ما تحمله القافلة التـي يُغَضُّ النظر عن مرورهـا عن قرب، أو من خلال نهـب القافلة التي يغمزون بمصادرتهـا، أوتلـك التـي يومئون بنهـب القليل منهـا، فأي شـيء يمكـن أن تحتويـه شحنـة هـذه القافلة، التـي لا يوحون بتمريرهـا ولا حتـى بمصادرتها؟ «مخـدرات؟ أسلحة؟ ثعابيـن؟ بلا أزرق؟».. ظل فرحان يـدور حول نفسه وهو ينبـس بالأسئلة، يزفر، وينفـخ، ويتفل، حتى أعلن عسكـري الاستطلاع عن أول ظهور للقافلة.

اقتربت الساعة من منتصف النهار، وظهرت البغال كما توقعت الإشارة، لكنها كانت لا تزال في الجانب الآخر من الحدود، مما لا يسمح بالتعامل معها على الفور. كان هذا مناسبًا تمامًا ليكمل فرحان تنفيذ بقية الأمر كما صدر إليه: ألا يجعل العساكر يبدلون ذخائر أسلحتهم إلاّ في اللحظة الأخيرة، جمع عساكره وجعلهم يفرغون الطلقات العادية من بنادقهم، ويستبدلون بها ذخائر أخرى. وما إن أمسك أحد العساكر بالطلقات قبل أن يعمِّر بها سلاحه حتى هتف مرتاعًا: «حارق خارق؟!» وصرخ فيه العريف: «ولا كلمة يا عسكري، نفِّذ، الأوامر تقول لا أسئلة، ولا كلمة». نعم قالوا: لا أسئلة، وقالوا أيضًا: «يتم إطلاق النيران عندما تكون القافلة في البير»!

أخذت القافلة تقترب على الممر الجبلي العالي، الذي يبعد عن مكان تخييم النقطة الحدودية بنحو ربع ساعة، وكان هذا يعني أن تصل القافلة إلى «البير» بعد خمس وعشرين دقيقة، فالممر العالي يدور حول أقرب قمة مواجهة لقمة النقطة، ثم يهبط رويدًا رويدا إلى أعمق الوديان قبل أن يعاود الصعود، متجهًا نحو ممر آخر يرتفع، ويدور حول قمة تالية. البقعة غريبة الانخفاض في الوادي الأقرب إلى النقطة هي «البير»، وهي تشبه بئرا بالفعل؛ إذ تنحدر فجأة إلى أسفل، تتسطح غائرة لمسافة قصيرة، ثم تصعد ثانية بحدة؛ لتكون في مستوى الوادي، بئر ضخمة يستحيل على غير البغال الخروج منها، لكنها تخرج على الرغم من ثقل الأحمال فوق ظهورها، تتعثر وتكبو أحيانا، وتنهض في أنين، لكنها لا تتوقف لحظة عن الحركة إلى الأمام حتى تخرج، والأوامر هذه المرة تشدد على ألاّ تخرج، تقع البئر مباشرة في مسقط رأسي تحت نقطة العريف فرحان، هكذا ستكون البغال وأحمالها، عند وصولها إلى البئر، في المرمي المباشر والأسهل لأسلحة العساكر. لن يكونوا في حاجة إلى تصويب دقيق، فقط يدلون بفوهات أسلحتهم، ويواصلون الضغط على الأزندة، لتنهمر الطلقات على أهدافها دون أن تطيش.

مرّت على فرحان أطول ثلث ساعة في حياته البسيطة الخشنة، إنه آمر نقطة حدودية منذ عشر سنوات، وهو في هذه النقطة فوق «البير» منذ أربع سنوات.

لطالمـا اعتبر نفسه محظوظًا بوصولـه إلى هذه النقطة، صحيح أنـه «دفع» ليُنقَل إليهـا، لكنه سرعان مـا أدرك أنه الرابح بلا شك؛ فالنقطـة عائدها كبير، سواء مما يصـل إليه من نقود في مغلفات بـلا عناوين، يلتقطها خلسة مـن عريف التموين، الـذي تمر سيارته اللـوري لتزويد النقطـة باحتياجاتها كل شهـر، أو من البضائع المهربـة التي يباح له أن يختلس القليـل منها عندما تصدر الأوامر بالمصادرة، هو يعرف أن كثيرين يصفون أمثالـه بأنهم مختلسون ومرتشون، حتى عساكره الذين لا يحرمهم من بعض ما يناله، يتهامسون فيما بينهم بذلك، لكنه أب لعشرة أطفال ولديـه زوجة، وأم عجوز مريضة، وأخت مقعدة، ثلاثة عشر نفسًا عليه أن يعولهم فـي قريته البعيدة.. لقد استفتى نفسه وأصدر الفتوى: «الخطف من الحرامية ليس حرامًـا».. فماذا ينال هو مقارنـة بما يناله المهربون الكبار فـي مكاتبهم الفخمة البعيـدة؟ الكبار الذين ينسقون «اللعبة» كلها؟! لم ير الأمر طويلا إلاّ «لعبة»، لكنه الآن يحس أن اللعبة تتحول إلى جد مخيف، عندما تصل القافلة إلى «البير».

مـر ثلث الساعة وقافلة البغال تقترب، وهي في أقصى اقتراب لها ستكون على مسافة مائتـي متر، ومع ذلك ظل فرحان يحس أن هذه الكائنات المقتربة بأثقالها تنظـر بعيونها مباشرة في عينيه، عيون كبيرة، فيها طيبة عيون الحمير، ولمعة عيون الخيـول، كحيلـة وعنـدمـا ترمش يحـس بلمس رموشهـا الطويلـة لقلبـه العـاري مباشرة، ذكّرته بعيون عياله في القرية البعيدة على ضفة النهر، عندما يلتمون حوله فـي الإجازة التي ينالها بتباعد، أسبـوع كل أربعة أسابيع، ينفق من الأسبوع يومين فـي الذهـاب والعـودة، ولا يتبقـى له وقـت يقضيـه مع عيالـه إلا خمسـة أيـام، لا يبتعدون عنه خلالها أبدا، ولا يكفون عن النظر بعيونهم مباشرة في عينيه؛ حتى يداهمهم النوم.

لـم ير خلال الدقائـق العشرين، على الرغم من سطوع الضـوء وتغير المنظر، غيـر عيون كائنات القافلة المتجهة نحو «البير»، لم يـرَ سلسلة القمم التي تضيئها شمس الظهيـرة؛ فتتألق ألوانها بتنوع خلاب، يكشف عن أطياف ألوان صخورها العاريـة التي نحتتها الريـاح، وغسلتها الأمطـار، وشقتها يد الـزلازل السرمدية.

طبقـات لونية بهية تتابع من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، وردية وشهباء، وضاربـة إلـى الزرقة، وثمة مساحـات خضراء خضرة مشرقـة، حيث تتكون في المواضـع التي تسيل منهـا عيون الماء مروج معلقة في الشقـوق الصخرية، لم ير خطوط الدروب، والمدقات، والممرات الطويلة التي لونها الضوء ببياض ضارب إلى الحمـرة، وهي تلتف، وتصعد، وتهبط، في تواصـل طويل جميل خلال هذه الدنيا الجبلية البكـر، لم ير السحب البيضاء الخفيفة التي تمر قريبة، يكاد يمد يده ويلمسهـا، لم ير أصفـي زرقة لأنقى سمـاء فوق تلاويـن الـذرى السامقـة، لم ير إلا تلك العيون الكبيرة الكحيلة طويلة الرموش تنظر إليه في عينيه، وبأسرع خمس دقائـق مرت عليه في هذا المـكان، وجد قافلة البغال المثقلـة بالأحمال الغامضة علـى ظهرهـا تهبط، كأنها تنزلق انزلاقًـا في «البير» الذي احتواهـا جميعًا، وقدّر وهو غائم الذهن أن عددها أكثر من عشرة.

وجـد عساكـره المصطفيـن علـى الحافـة، يمسكـون بأسلحتهم فـي وضع الاستعـداد، وينظـرون إليه في صمـت متسائل، رأى عيونهـم تقترب محدقة في عينيه دون أن يغادروا مرابضهم، وكانت عيون الكائنات البكماء في البئر ترنو إليه أيضـا وتقترب، شعر بدوار، وأرعبه أن يهوي ساقطًا في بئر العيون، فانطلق صوته كأنه يصرخ من غياهب صـدره العريض الأشعر طالبًا النجدة: «سلاااااح». ولم يتبق إلاّ أن يكمل أمر إطلاق النار. ■

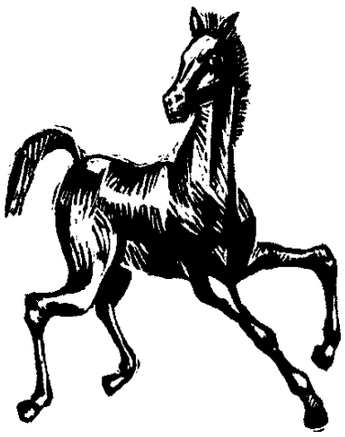

● «رأيت في تاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله، في ترجمة أبي جعفر الحسن بن محمد بن جعفر الزاهد العابد، أنه روى بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل، قال لريح الجنوب إني خالق منك خلقا أجعله عِزّا لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وجمالا لأهل طاعتي. فقالت الريح: اخلق يارب، فقبض منها قبضة فخلق منها فرسا، وقال جل وعلا خلقتك عربيا، وجعلت الخير معقودا بنواصيك، والغنائم محازة على ظهرك، وبوأتك سعة من الرزق، وأيدتك على غيرك من الدواب، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تطير بلا جناح، فأنت للطلب، وأنت للهرب، وإني سأجعل على ظهرك رجالا يسبحوني، ويحمدوني، ويهلّلوني، ويكبّروني». **(الشيخ كمال الدين الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى)**

● الخيل غالبا ما تخشى من التغيير الذي يحدث في بيئتها، بل يبدو أن الخيول الجفولة تنزعج من تغيرات متخيلة؛ فقد يتسبب شيء مرّ به الحصان عددا لا يُحصَى من المرات في حرنه، على الرغم من عدم حدوث أي تغيير. **(جيفري ماسون ـ حين تبكي الأفيال)**

اكتئـــاب الخيـــول

لـم يتعثـر الحصان الذي أمتطيه وسـط منطقة الألغام لأقول إنـه كبا، فهو لم يقـذف بي عن ظهره فـي لحظة خاطفة، لم يطرحني على الأرض بغتة، بل وجدته ونحن في منتصف الطريق يتمهل، ويمعن في تمهله، ثم يتوقف ساكنا كأنه انطفأ، لبـث على سكونه هذا لحظات، بعدها أخذ يتداعـى تحتي، ويميل وهو يتداعى، فينطرح على جنبـه، وأجد نفسي إلى جواره على الرمل منقلبا على ظهري، يدي تتشنج على مقبض حقيبتي الطبيـة التي لم تنفتح، وجسمي متيبس على الهيئة التي وقعت بها، تجمدت كأنني تمثال، وكنت مبهورا بتوهج ضوء النهار، أكاد لا أبصر.

لابـد أن حدقتيَّ بلغتا أقصـى اتساعهما في هذه اللحظـات، إذ سطع شحوب الرمـال فجأة، وبـدت السمـاء ناصعـة البياض، والتمـع سطح البحـر المحدق بالجزيـرة من كل اتجاه، كأنـه مرآة صقيلة يخايلها ضـوء الشمس، الشمس التي استعرت في الأعالي، وفي عيني، وعلى جلدي الذي أحسسته يحترق.

شعـرت بسخونـة داخلية تجتاحنـي، وعرقًا غزيرا ينضح مـن جسدي، وكان ذهني كأنما ينصهـر، لم يحدث أي انفجار لأي لغم، تأكدت من ذلك، وأدركت أن البـوارق التـي غمرتني لم تكن إلا انعكاسات الخـوف، والمباغتة في داخلي. تشوّشـت مزدحمًا بألف صـورة وصورة عن الموت نسفـا، أو لدغًا، أو عطشا، وعـن الحياة بأطراف مبتـورة، وعن النجاة فـي الوقت ذاته، ثم بـدأت أبرد شيئًا فشيئًا، والذهـن يصفو، فأسمع في السكـون السابـغ هسيسا لم أستطع تصديقه، مددت يـدي مبطئا حذرا نحو خطم الحصـان، أحسسـت بأنفاسه الدافئة الرطبة تتردد، فنهضت قافزًا في مكاني أصرخ: «لم يمت. لم يمت. لم يمت».

وثبَـتْ روحي فرحًـا بالنجاة، وسرعـان ما هـوت يأسا في أعقابهـا، فحالما ركعـت إلى جوار رأس الحصان أتمـلاه وأتلمسه، أدركت أنه لم يمت، لكنه حي أقـرب إلى الموت، لقـد استلقى وثبت على وضع استلقائـه، ليمكث هكذا حتى يموت، عينان شبه مغمضتين انطفأ بريقهما، ولايطرف لهما جفن، وأنفاس تتردد هامدة خلال فتحتي منخاريه اللتين ارتختا في ذبول.

كنـت أسمع عن هـذا الأمر مـن زملائنا البيطريـن، قبل أن تطـأ قدماي أرض الجزيـرة مـن دون أن أصدقه، فشرعت متـرددا ألمس بطـرف سبابتي قرنية عين الحصـان، لم يرمش، أشد شعـر معرفته بقسـوة، لا يتحرك، أخرجت من حقيبتي إبـرة اختبار الإحساس، ورحت أخزّ بها جسد الحصان عميقا في أماكن عِدة، لم يبـد استجـابـة، أدنى استجابة، لقـد استلقى متماوتًا هكذا حتـى يموت، وأموت بدوري أنا الآخر، فلو أنني حاولت السير وحدي، لكنت عرضة لانفجار لغم من كثيـر الألغام، التي بثها الإسرائيليون في الجزيرة فتـرة اجتياحهم القصير لها، وإن

توقفت في مكاني فالموت قادم بضربة شمس، أو ناب حية، أو ذنب عقرب من تلك التي لا تكف عن الطفو، سوداء على سطح الرمال، ولو أنهم انتبهوا لغيابي، وشرعوا في البحث عني، لما وجدوني إلا جثة أو مشروع جثة.

صار يأسي مطلقًا فلم يعد أمامي إلا التسليم باحتمال الموت، ارتميت على ظهري إلى جوار الحصان الساكن، أحدق في السماء التي استعادت زرقتها، وكنت وأنا أحدق أجترُّ الصور...

***

يا الله، إلى أي حد كنت منتعشا بالنداء الذي وصل من الجزيرة إلى مستشفانا، يستدعي طبيبا لمناظرة «حالة طارئة» لمريض، كأنني كنت في انتظار هذا النداء، ألححت أن أكون من يذهب للتلبية، واندهش زملائي لهذا الإلحاح، فمعظمهم لا يحب مهمات البحر، وتلك الجزر المقفرة والمعزولة وسط المياه، وزادت دهشتهم حينما عرفوا بطلبي المبيت في الجزيرة، إذ لم تتطلب حالة المريض نقلاً سريعًا إلى المستشفى بصحبتي.

لطالما ظللت مشدودا إلى هذه الجزيرة، دون أن تطأها قدماي، فهي تلوح طيفًا في أفق المياه عندما يكون الجو صحوا، وتختفي كأنها لم توجد قط عندما يعلو الموج، ويرتفع الضباب فوق الماء.. الجزيرة المحاطة بهالة من الحكايات وسط البحر الزاخر بالأسماك الملونة، والقروش النهمة، وحدائق الشعاب المرجانية خلابة الألوان، فنارها الشهير الذي قاوم منه «النقيب» حين داهم الإسرائيليون الجزيرة، ولم يكن معه غير عدد محدود من الجنود، قضوا جميعا في مواجهة الإنزال المُعادي المسبوق، بقصف جوي والمدجج ببرمائيات مدرعة ومدفعية ثقيلة، صعد إلى الفنار وظل يقاوم حتى حسبوه سرية كاملة، نفدت ذخيرته، فقصفوا موقعه بكثافة نيران تكفي لصهر مدرعة قبل أن يصعدوا إليه. فوجئوا به مجرد رجل وحيد بسلاح فردي، وكان ينزف بغزارة، لم يؤدوا له التحية التي يستحقها «محارب شجاع» كما في أعراف كل الجيوش والتقاليد

العسكريـة، بل أفرغوا فـي جسده النازف مزيدًا من الطلقـات، وفقئوا عينيه وهو يحتضـر، ثم ألقوا به من أعلى الفنار ليتمزق جثمانـه على قاعدة الصخور البحرية الصلـدة. حملت الجزيـرة اسمه، لكن اسمهـا القديم، المجـرد (الجزيرة)، ظل متداولا، جزيرة تتحلقها المياه الفيروزية، كاشفة عن طوق رقيق ساحر من حدائق البحـر الملونة يحيط بها، كأنه إطار من الضوء وسط الزرقة الداكنة للمياه العميقة، جزيـرة يحكون عن ظهور الغزلان فيها، غزلان أحضرها الملك السابق عندما زار الجزيرة، تركهـا ونسيها ونساه الزمان، أهملتها تغيـرات العصور وذاكرة الناس، ويُحكـى أنها تظهر بين الحين والحين مثـل أحلام ناعمة خاطفة، تتجلى هنيهات ثـم تتبدّد، جزيرة حولها حقـد الإسرائيليين إلى حقل ألغـام قُبيل انقشاعهم عنها، وبـات السير الطليـق فيهـا قاتلاً، إلا علـى ظهور جيـاد مدربـة الحواس، مرهفة الخطـى، جيـاد تعرف طريقها عبـر المسارب الآمنـة، منتقاة من أجـود الخيول العربية، خيول تجيد الرقص على أنغام المزامير، وشدو النايات، وإيقاع الدفوف، أجسامهـا بديعة التناسـق، وعيونها جميلـة كحيلة، وخطاها تصعـد وتهبط بدقة تتناسـب مـع الموسيقي، التي تتناهـى رهافتها فـي النصف دَقَّة والربـع «تون»، خيـول مثل الصبايا الجميلات، يزيد حسنهـن التنعُّم والتدليل، وتشوههن القسوة والشقـوة، خيول مهرت في عبور المسارب الدقيقة بيـن اللغم واللغم، مثلما هي ماهـرة في البختـرة بين النغمة والربع نغمة، لكنها لم تحتمـل ما صارت إليه حياة الجزيـرة، لم تحتمل جفاف الرمل ويبوس الصخر، وسـأم اللغط المتكرر للبحر، وملوحـة الماء، وجفـاء سكانها الذيـن علّمتهم حيـاة الجزيرة اعتيـاد الصمت، والهـروب إلى النوم الطويل، أو الشرود فـي أحلام يقظة خاوية لا تنتهي، صارت الخيـول تكتئـب في الجزيـرة، وبقدر ما هي رقيقـة، كان اكتئابهـا عاصفًا؛ فهي تُباغـت سُيّاسهـا من الفتيـان قليلي الخبرة بالجيـاد، تقفز في البحـر، وتسبح في جنـون؛ حتى تبلغ مواضع تجمعـات أسماك القرش، تسلم رقابهـا الطويلة لطيفة التقوس، وأكفالهـا الرغدة للفكوك المفترسة، وتغمض عيونها عن العيون القاتلة، التـي لا جفون لها، والتـي تصير أقسى وأحدّ، كلما اصطبغـت مياه البحر بحمرة

الدمـاء. خيول عديدة انتحرت على هذا النحو، وكانت تختفي بكاملها في بطون القـروش النهمـة خـلال دقائـق معـدودة، أمـا تلك التي حيـل بينهـا وبيـن القفـز إلـى مسلـخ القروش، فإنها كانـت تنتحر على البـر بشكل أهدأ وبعنـاد لا يريم، تتهاوى فجأة، وترقد بلا حراك، حتى تموت بالجفاف عطشًا وجوعًا.

كنـت أستعيد حكايـات الجزيرة، وأنا واقف على ظهـر «اللانش» في الطريق إليهـا، اجتزنا مساحة المياه الفيروزية الضحلة في الشريط الساحلي، وبدأنا نوغل فـي الزرقـة، نلتقي بأسـراب سمك «الباربـون»، التي تظهر كشـرارات من فضة ونحاس، تطيـر بارقة في قوس واسع فوق المياه، ثم تغوص مختفية بين الأمـواج. وفي الزرقة العميقـة المكللة ببياض الثَبَج، كانت أجسام الدرافيل الناعمة والوثابة تلمـع فـي قفزات مرحة، أما في الزرقـة الأعمق، والتي تقـارب السواد، فلم يكن هنـاك غير الموج الذي يُخفي في الأعماق السحيقة، وحوش البحر ذات الفكوك المطروسـة بصفوف الأسنـان المثلثة المدببة كالمنـاشير، لم يكن أحدها يطل ولو بطـرف زعنفته الظهريـة عبر الماء، لكن القتامة الناعمـة للدوامات في هذه البقعة كانت توحي بوجودها القاتل.

مـع الإبحار أبعد في الميـاه العميقة، رأينا الزرقة تصيـر أفتح، والنوارس تحلق بيضـاء في ألق الشمس، ثم ظهرت الجزيرة فجـأة كأنها صعدت لتوها من أعماق البحـر، وسرعان ما لامس زورقنا المرسى الخشبـي الممتد من رصيف الجزيرة، وجـدت ثلاثة رجال في انتظاري، ومعهم حصان بني جميل، أبهجتني الاستثارة، فقفزت قفزة واسعة إلى المرسى قبل أن يلتصق به الزورق مكملا توقفه.

رحب بـي الرجال عنـد المرسى، وكانت آثـار العزلة والحرمـان الطويل من الوجبـات الطازجة بادية عليهم، أجسام ضامرة، وجلود داكنة في شحوب، وثمة بقـع فاتحـة ترقش وجوههم، كانـوا يتكلمون باتئـاد، وأصواتهم تخـرج متآكلة خفيضـة، سألتهم عن المريض، فأخبروني بأن الحصـان سيحملني إليه في طرف الجزيـرة الآخر، ولاحظت أن الحصان لم يكن مربوطًا، ولم يكن أحدهم يمسك

به، ومع ذلك يقف هادئا، وإن كان متململاً بعض الشيء، ولما رآني أحد الرجال أنظر إلى الحصان متحيرًا، نبس يطمئنني: «هو حافظ الطريق.. حافظ الطريق».

رأيت في المكان «كُشكًا» خشبيا وضح أنه لحراس المرسى، وكان به تليفون عتيق، سألتهم إذا ما كان التليفون يعمل، وإذا ما كان باستطاعتي أن أتصل بالمريض أو بذويه، كان التليفون يعمل بكفاءة لا ينم عنها مظهره المهلهل، وسطحه الصدئ.. استفسرت عن الأعراض التي يبديها المريض، وقدّرت أن الحالة ليست جراحية، ولا تستدعي نقلاً سريعًا إلى مستشفانا في المدينة، أوصيت بإعطائه حقنة مزدوجة من مزيلات الألم، ومضادات التقلص لحين وصولي، وشعرت بارتياح لانفساح الوقت أمامي؛ كي أعايش تلك الجزيرة، وحكاياتها، ببعض التمهل.

امتطيت الحصان وناولني أحد الرجال حقيبتي الطبية وأنا على صهوته، ولولا أنني أمطرت الرجال الثلاثة بسيل من الأسئلة قبل أن أركب؛ لما أخبروني بشيء مما كان يتوجب عليهم إخباري به، إما لأنهم كانوا مكتئبين وغير مكترثين، أو لأنهم كانوا مطمئنين إلى عدم حدوث ما يعرضني للخطر، أجابوني بألاّ أحث الحصان على الإسراع أبدا، خصوصًا في منطقة الألغام الكثيفة التي يكون الوصول إليها بعد خمس عشرة دقيقة، وألا أضرب أو ألمس رقبته من أحد جانبيها حتى لا يحيد عن مسربه، وألاّ أغني في الطريق أو أدندن؛ حتى لا يطرب ويتمايل أو يتبختر، فيدوس لغمًا ينفجر في كلينا! فهمت منهم أنني ينبغي أن أكون نائمًا أو شبه نائم على ظهر الحصان، وأن أترك ليقظته وحدها أمر إيصالي سالمًا. ويبدو أن هذه الفكرة قد تحولت إلى إيحاء ذاتي، أوشك على تنويمي بالفعل، إذ انتبهت إلى تمهُّل الحصان وأنا في شرود أقرب إلى النعاس، نفضت رأسي لأفيق عندما وجدته يتوقف، وكان ذُعري مضاعفًا عندما أخذ يتهاوى، ويرميني إلى جانبه.

مـرّ دهر من القيظ فوقنا، والتهاب الرمل تحتنـا، وبدأت أشعر بالعطش يشتعل فـي حلقي، برغـم أن الساعة في يدي لم تكـن تشير إلى أكثر مـن خمسين دقيقة مضت منذ غـادرت المرسى، أي خمس وثلاثين دقيقة منذ تهاوى الحصان، كان لا يزال راقدًا على جنبه لم يتحرك، ولم يطرف، ولم يستجب للتنبيه، حتى بعد أن عاودت وخـزه بإبرة الأعصـاب إلى حد الإدمـاء.. بدأ القنـوط يغزوني ويتخلل كياني ويصل أخيرا إلى نقطـة السخرية، السخرية المرة، فقد عهدت نفسي، كما أهلي معظمهم، عندما يبلغ بنا اليأس مداه ننزع إلى السخرية، نمزح، رحت أمزح مـع الحصان، ماسحًا على رقبته وعلى شعر معرفته الغزير المتماوج، أكلمه بمزاج رائـق: «إيه يا حصان يا عبيط.. لك حياة واحـدة وتريد أن تموت.. ألا تعرف أن وراء هـذه الجزيرة بحرًا، ووراء البحر شاطئًا، وعند الشاطئ مراع خضراء، تموج بلذيـذ العشـب، وتتخللها جـداول عذبة في مائهـا سكر، وهناك، هنـاك أفراس بديعـات الحسن، نديات العيون فـي انتظارك.. آه يا حصان يـا عبيط!». مكثت أمسـح على عنقه براحتي، وأنا أتحدث عـن تلك المراعي الخضراء هناك، وأشرد جاعلاً فيها مكانا للبشر، بل لنفسي تحديدا، حيث ألتقي بأكثر من أحببت، وأنـال أفضل ما اشتهيت، استغرقت في نشيدي حتى صار حلما، وتكاثف الحلم فتحول إلى أحاسيس، أُوشِـك أن أحياها وأحيا بها وأنا محاصر بترجيح الموت في دائرة ضنينـة، وإذ بـي أُحس بملمس رقبة الحصـان يتغير، يصير شعـره مُدغدغًا لبطن كفـي، وعضلاته تنبض مثـل أوتار يجري شدهـا، نهضت مائلاً أنظـر إلى رأسه، فوجدتـه يفتح عينيـه اللتين التمعتـا بتألق عجيـب، واصلت نشيـدي وتمسيدي وكأننـي أنشد لنفسي وأُمسِّد روحي، بل كنـت أنشد لنفسي وأُمسِّد روحي، وإذا بالحصان يهم من رقدته الثقيلة، يعتدل ويلم قوائمه وينفض رأسه، كأنه يصحو من نـوم عميـق، وينهض، ينهض وأنـا أتعلق برقبتـه غير مصـدق ما حـدث، كيـف حـدث؟.. لمـاذا حدث؟ هل فِعـل التمسيد لأطراف الأعصاب فـي جلده هو ما جعـل جهاز الحس الـذي أطفـأ نفسه تهيُّـؤاً للموت، يعيـد إيقاد أنـواره؛ تأهبا

لمواصلة الحياة؟ لقد عاينت وأنا طبيب امتياز في دورة طب الأطفال رُضّعًا، شارفوا على الموت بفعل الجفاف، ولم تعد أوردتهم تستقبل إبرة المحاليل، ثم رأيتهم ينهلون من هذه المحاليل ذاتها بالفم، وهم في أحضان أمهاتهم اللائي يمسحن على ظهورهم، وهن يستقطرن من أعمق أعماق أرواحهن خلاصة أدعية الرجاء. هل تحول صوتي وأنا أنشد الحلم إلى نداء لا تهم فيه الكلمات؛ لأن المعاني اكتنفت نبرات الصوت؟ لقد كان صوتي المنشد يرن مؤثرًا في صدري أنا نفسي، حتى أحسستني مشدودا إلى هذا الرنين، وكأنه صار غاية مشبعة بذاتها وفي ذاتها.

أحسست بأنفاس الحصان قوية قرب رأسي، وأنا أقف إلى جواره، ورأيته ينفض أذنيه ويهش بمعرفته وشعر ذيله الجميل الطويل كأنه يدعوني للركوب، ركبت، وقد نسيت تحذيرات الرجال عند المرسى، بألا أمس جوانب عنق الحصان. كنت أربت جانب عنقه، وأمسح عليه براحتي، وهو يمضي متبخترًا كأنه يسير في دروب لحن شرقي، تعزفه المزامير والنايات والدفوف، دونما ضوضاء أو صخب، ولم تكن في قلبي ذرة خوف من انحراف خطاه، نسيت حديث الألغام كأنني لم أسمعه من قبل، واشتملت بنشوة غريبة كأنني لا أركب حصانا يسير على الأرض، بل بساطا مسحورا يحلق بي فوق السحاب، وكنت آمل ألا ينتهي التحليق، لكن مريضا كان ينتظرني عند الطرف الآخر من الجزيرة.

***

بزغ قرص الشمس كبيرا أحمر من قلب المياه، مغالبًا غبش الضباب البنفسجي في الصباح الباكر، وكنت يقظان مع النوارس أعاود الاتصال بالمدينة، بعد أن أديت مهمتي، واطمأننت على المريض، أطلب إرسال «اللانش» لإرجاعي، لقد رأيت كل ما أردت رؤيته في الجزيرة، ولم يعد عندي من الفضول المزيد، رأيت ما يراه الناس، وما لا يراه الناس، وما يمكن أن يروه لو أرادوا، رأيت أرض الجزيرة مفروشة برمال بيضاء ساحرة النعومة، مما نثرته ملايين المناقير الملونة لأسماك الببغاء من طحين الشعاب المرجانية، اليابسة، الناصعة على مر الدهور

بينمـا المراجـع تزعم أنهـا أرض صخرية جـرداء، رأيت الفنـار مضيئا والجميع يؤكـدون أنه مطفأ منذ سنوات بعيـدة، ورأيت الغزلان التي يظنونها سرابا وما هي بسراب.

***

عنـد الضحـى أخبروني بقـدوم الـزورق لإرجاعي، فركبـت الحصان، ذات الحصـان، إلى الجهة الأخرى مـن الجزيرة عند المرسى، وكـررت سيرة الأمس بإمعـان أشـد، التربيـت والتمسيد على جانـب العنق الذي حذرونـي من لمسه، والنشيـد الـذي تقاسمنـاه حلما، ونبـرات صوت تغني عن الكلمـات، اجتاز بي الحصـان حقل الألغام راقص الخطو طروبـا، ولم أكن خائفًا من رقصه ولا طربه. وجـدت الـزورق متأهبا للإقلاع عنـد المرسى، فنزلت عن ظهـر الحصان، وهو يحمحم كأنه يقـول شيئًا، أو يريد أن يقول. ولما اندفع الزورق مُقفلاً، مبتعدًا عن رقيقـة الماء الفيروزي، ميمما شطر الزرقة العميقة، سمعت صهيل الحصان ورائي فالتفـت، كان يشب عاليا رافعًا قوادمـه في الهـواء كأنه ينادي، وكـانوا يحيطـون بـه، ويَجهـدون للسيطرة عليه وإنـزاله. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

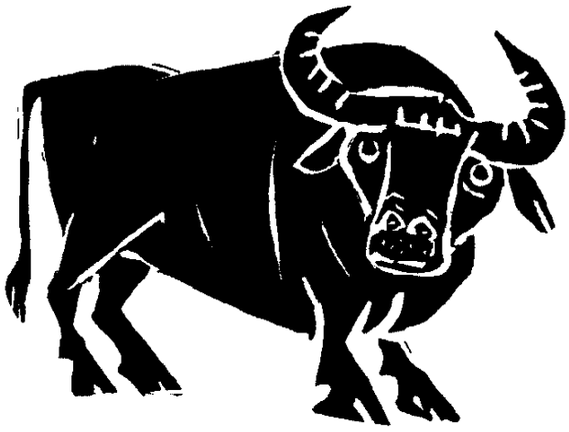

● الجاموس حيوان عظيم لاينام البتة، ولعله في بعض أوقات الليل يغمض جفنه، زعموا أن في دماغه دودة تتحرك دائما لاتخليه ينام، ويدفع السباع عن نفسه، ويقتل التمساح مع عظم بدنه، ولذلك يسرحون الجواميس على طرف النيل. والجاموس يمشي إلى الأسد، وهو ثابت الجنان وليس له إلا قرنه، وليس في قرنه حدة، فضلا عن حدة أطراف مخالب الأسد وأنيابها، ويغلب الأسد قالوا: إنما يغلب الجاموس الأسد؛ لأنه يذب الأسد عن نفسه والأسد يريد أن يجعله طعاما له. **(القزويني ـ عجائب المخلوقات)**

جواميـــــس

القتلـى: تسعـة مـن البشـر، وعشـر جواميس، وخمسـة عشر مـن الخراف والماعـز، وعدد كبيـر لم يتم تحديده مـن الدواجن، التي لم تكـن بينها الأرانب لأسبـاب لم يتوقف أحـد لتفسيرها، وفي غير الأرواح، احترقـت سبعة دور أتت النيـران علـى اثنتين منهـا تمامًا، ودُمِّرت ثلاثـة حوانيت للبقالـة، انهارت ثماني واجهات لبيوت طينية، وتساقطت كل أسوار الأجران، أما أكوام الروث وأكداس التبن، فقد نُثرت كالغبار في سماء القرية كلها بعد منتصف الليل، ولم تهدأ إلا عند الفجـر حيث هبطـت هبوطًا وئيدًا وئيـدًا، لتغطي الـدور، والبشـر الذين هدهم التعـب، وروعتهـم الجائحـة، وكانـوا يبكـون بعيون جافـة، وبـلا نحيب على ضحاياهـم الذين شرعوا يهيئونهم للدفن في الصباح، رجلان أحدهما في الثلاثين والثانـي تجاوز الثمانين، وامرأتان فـي منتصف العمر، إحداهما حامل في شهرها التاسع، وخمسة أطفال، تتراوح أعمارهم بين الستة الأشهر والأحد عشر عامًا.

الأضـواء: أضـواء مصابيح النيون بـدأت انتشارها الكاسح في ليـل القرية منذ عشريـن عاما، منذ راحت محطة تقوية الإرسال الإذاعي تبث موجاتها من المبنى الصغيـر، الحديث المحـاط بالأسوار على الطريـق الرئيسي أمـام القرية. العمال الذيـن تم توظيفهم في المحطة مـن أبناء القرية كانوا عمـالا زراعيين معدمين، لا يملكـون ولا يستأجـرون أرضًـا يزرعونهـا، ويكتريهم من يمتلكـون الأرض أو يستأجرونها للعمل لديهم فـي المواسم، هؤلاء نقلوا الاكتشاف إلى القرية بعد أن التقطـوا سره مـن المهندسين والفنيين في المحطة، فهمـوا أن هناك موجات قوية ترسلهـا هوائيات المحطة، لتحمل على ظهرهـا موجات البث، التي ضعفت بعد قطعها لكل تلك المسافة، آتية من مبني الإذاعة في العاصمة البعيدة، وأطلقوا على تلـك الموجات الحاملـة اسم «الحميـر»، لقوتها وجلدهـا وصبرها على تحمل موجـات البث المنهكـة، وإيصالهـا حتى شاطـئ البحر. ثم إن هـذه الموجات (الحمير)، وهـي تنطلق في دروب الهواء عابرة سماء القرية، كانت تعفِّر في الجو كهربـاء تكفي لإشعال مصابيح «النيون» المستهلكة، التـي لم يتبق فيها إلا القليل من بخـار الزئبق الذي تعجـز عن جعله يتوهـج كهرباء الأسـلاك، و«ترانسات» التيار، ونوابض «الاستارتر» المعتادة.

زحـف الأضـواء: تراكمت على مدي العشرين سنة أضـواء النيون، التي لم تكن مصابيحها التالفة تكلف شيئًا لتتوهج، بلا توصيلات كهربائية، وبلا تجهيزات إلا مجـرد تعليقها على الحيطـان، وقرب الأسقـف، وفوق الأسـوار، وبين أغصان الشجـر، ولم تكن خيوط تعليقها إلا مما تيسر، نسـالات الأجولة، ومزق الثياب المهترئة، أو حتى خيوط التيل وأفرع اللبلاب.

مزيـد مـن التوهج: منذ سنـة، أو أقل قليـلاً، أو أكثر قليلا، أخـذت أضواء القرية تتوهـج في الليل زيادة؛ حتى أمست القرية من أكثر بقاع العالم إضاءة، إن لم تكن أكثرهـا علـى الإطـلاق، وكأن لياليها صارت نهـارات تضيئهـا شموس عديدة. فانتشـار مصابيح توفيـر الطاقة «داي لايت» في مدن البـلاد، أخذ يحيل مصابيح النيـون – حتى وهي فـي كامل قوتها – إلـى الاستيداع المبكـر، وتكاثرت على

القرية مصابيح النيون السليمة دون مقابل يُذْكر، وكانت هذه لا تحتاج إلى التعليق حتى تصل كهرباء جو القرية إلى أقطابها، وتشعل ما بها من غاز وفير، مجرد وجودها ملقاة بطرفين مكشوفين كان كفيلاً بجعلها تتوهج بقوة، على أرض الشوارع والأزقة، وفوق الأسوار والأسطح، وفي حظائر البهائم، وداخل عشش الدجاج، وعلى جسور الترع، وفي كل الحقول.

لم يكن التغيُّر مفاجئًا: حدث ما ظل يحدث عبر عقدين من الزمان، وإن تزايدت وتائره، وتضخمت ملامحه مع الوقت، فالمحاصيل المغمورة بنور الشمس في النهار، وأضواء النيون في المساء كانت تنمو أسرع، وأكبر، وأطول، وأوفر، وإن فقدت طعومها المألوفة. الأبقار صارت تأكل ليلاً ونهارًا دون توقف، حتى اقتربت من أحجام الفيلة، وكانت تعطي حليبا غزيرًا خفيفا، لكن نسلها صار شديد الضعف، يهلك معظمه في الأيام الأولى عقب الولادة. أما البشر فكانوا يزدادون ضخامة في الأبدان، ويميلون إلى الترهل والرخاوة في الحركة، تحّول نومهم إلى إغفاءات متقطعة ومتواصلة على مدار اليوم، وخلال الليل المتوهج بالأضواء. لم يعودوا يؤوبون إلى مهاجعهم في المساء، ليغطسوا في جب النوم، حتى الصباح الباكر كأيامهم الخوالي، بل صاروا يتمددون على المصاطب، وفوق الأسطح، وتحت الشجر، ليغفوا قليلاً في أوقات مختلفة، ويفيقوا جوعي متثائبين ليأكلوا، ويعملوا قليلاً، ثم يعاودون التمدد كلما ثقلت أجفانهم.

ليلة الجائحة: قيل إن شدة التيار تزايدت فجأة في محولات المحطة، وقيل إن ذلك لم يحدث، لكن الشائع هو أن سطوعًا غير عادي حدث لأضواء النيون، التي تغمر القرية ومحيطها من الحقول، حتى إن البوم غفا من فوره على أغصان الجميز، وفوق الأسوار، فكان يتساقط في ارتطامات صماء على الأرض، والخفافيش آبت إلى أسقف الخرابات، وحناياها، ولطت بها كأنها طلقات لزجة تلتصق بأهدافها. تزايد طنين النحل، وعلت صوصأة العصافير التي اضطرب تحليقها، وتصاعدت جلبة غير معهودة في عشش الدجاج، وأبراج الحمام، وضجت الزرائب.

فـي الدقيقة الثلاثين بعد منتصـف الليل: ضربات هائلة مكتومة أخذت تُطيِّر أبواب الزرائـب، وتبقر حيطانهـا الطينية، وانطلقت مـن الأبواب المنهـارة، وفجوات الحيطـان جواميس القريـة، كل الجواميس، كأن شيطانًـا ناداها جميعا في لحظة واحـدة، وراحت تنخرط في قطيع متلاطم، يندفـع بجنون أعمى في شارع «داير الناحية» الذي يخترق القرية مـن أقصاها إلى أقصاها، وعندما بلغ القطيع المندفع نهايـة الشارع الطويل، وجد أمامه جسر المصرف الخشبي القديم، الذي سرعان ما انهار تحت ثقل البهائم، وشدة لطمات أظلافها.

عقـب انهيـار الجسـر: هوت عدة جواميس فـي مياه المصـرف، وارتج القطيع الهائج، بينما راحت صدمـة التوقف المفاجئ تسري في جسم الزحام المتخبط، تمشطـه من البداية حتـى النهاية، وبـدأت الأخطام والقرون تستديـر وتتشابك، فتتناطـح، وتَحوّل القطيع الكبيـر إلى شراذم قطعان ملتاثة، تجـري في كل اتجاه وحيثمـا تألق ضوء هنا أو هناك، كانـت الجواميس المندفعة تصوب رؤوسها إلى كل مـكان عُلِّق فيـه أو أُلقي به مصباح نيـون، وعندما كان يعْسُـر عليها النيل من مصبـاح في مكان مغلق، كانت تواصل نطح الجُدران أو الأبواب أو الأسوار، بل أخـذت تجوس في الأزقة وتقتحم الـدور؛ بحثا عن ذلك الضوء الأبيض المتوهج لتخمده، بقرونها، وأظلافها، وأخطامها، وأكفالها. كانت تضرب انبعاثات ذلك الضـوء الأبيض، بـكل كياناتها الثقيلـة الهائجة، ثم أخذت الأضـواء تتراجع فيما كانـت الحرائق تشتعل، والغبـار يتطاير، والبشر يصرخـون، والدواجن والماشية تحـاول الفرار، لكـن الدهس تواصـل. ولما وضح أن الغايـة كانت تلك الأضواء البيضـاء، سارع الناس يحطمون كل ما تطوله أياديهم وأقدامهم من مصابيح، حتى انطفـأت القريـة تماما، وراحـت القطعان تتجه نحـو ما تبقى من أضـواء بيضاء، تتلامع في اتساع الحقول. ■

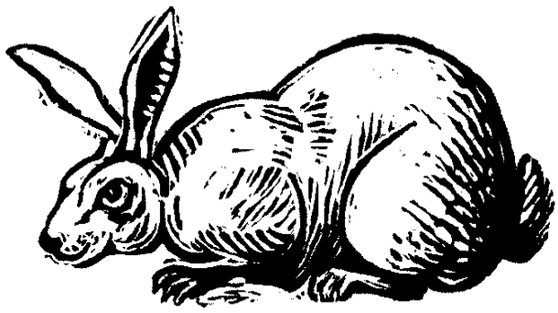

● «نحن بيولوجيا على وجه الدقة، وليس المجاز نشبه الأرنب، حين يأكل العشب الرطب بنهم في الضوء الذي يسبق الفجر، حيث تنتشر الشبورة، ثم يمضغ وصغيره يتشممه وقد بلله الندى، وفجأة ينظر حوله بعنف». (**جيفري ماسون، وسوزان ماكارثي – حين تبكي الأفيال**)

● والأرانب تنام مفتوحة العين فربما جاءها القناص، فوجدها كذلك فيظنها مستيقظة، ويقال إنها إذا رأت البحر ماتت. (**الدميري – حياة الحيوان الكبرى**)

أرانب مسحورة

لم أستطع الانتظار عندما تنامى إلى سمعي ما يحكونه عن الظهور الليلي، لتلك الأرانب في ميدان مدينتنا القديم، بعد أن احترق محول الكهرباء الرئيسي، وحل على الميدان وما حوله ظلام دامس، رجحوا أن يستمر لعدة أيام حتى يتم إصلاح المحول. ركبت آخر القطارات السريعة المتجهة إلى المدينة، لأكون هناك عند حلول الليل، إذ قيل إن تلك الأرانب تبدأ عرضها الغريب بعد منتصف الليل، وتختفي تمامًا مع ضياء الفجر.. عشرات، مئات، ويبالغ بعضهم فيزعم أنها آلاف الأرانب البيضاء، بياضًا ناصعًا، تتدفق تحت جنح الظلام في الميدان القديم الواسع، عندما يخلو من البشر. تنبع من مكان مجهول وتنتشر في الميدان بلا صوت، تتحرك بانسياب فيما رؤوسها تهتز بنمنمة، وآذانها الطويلة تتأرجح ببطء، وأفواهها لا تكف عن قضم عشب غير مرئي، وكأن أسفلت الميدان المترب قد تحول إلى مرعى شاسع غزير العشب!

***

منـذ ستة وعشرين عاما ساقتني الأقدار، وبراءة العمر، لأكون المتهم الأول في أحـداث أول العـام التي وقعت بالمدينة، وجَّهت إليَّ النيابـة تهمة التحريض على الأحـداث، وما ترتب عليها مـن تخريب وتهديد لأمن الدولـة، وموت اثنين من المواطنيـن برصاص مجهول، وكانت العقوبة التـي طلبتها النيابة لي هي الأشغال الشاقة المؤبدة، استمرت القضية سبعة أشهر كاملة، قضيتها في سجن المدينة، مع ثلاثـة من الطـلاب الذين لم يُفرَج عنهم من بين مائـة وخمسين، تم القبض عليهم فـي أثناء الأحداث. لم يكن تكريمي بهذا الموقـع الفادح لدور بارز قمت به، بل كان اقتناصـا سياسيـا من السلطـات، لشاب كان يتعامل مـع السياسة بروح فني، قـال ما أعتقد إنه الأصـدق والأجمل، سمَّى أشياء بأسمائهـا الخطرة، وأشار إلى رؤوس كبيرة وثقيلة، ولـم يتراجع قط عـن التهور الذي احتشد لـه عشرون من أفضل المحاميـن السياسيين المتطوعين، ليحصلوا له علـى براءة قانونية، صحيح أن جهود المحامين المخلصة أثبتت جدواها، ورتبت الأقدار قاضيا زكي القلب، لتكـون هذه آخر قضية ينظر فيهـا قبل خروجه إلى المعاش، حكـم بالبراءة كاملة غيـر منقوصة، إلا أن هـذه البراءة كان يمكن الحصول عليهـا بجهد أقل من ذلك كله، لو أنني وجهت أنظار القاضي والمحامين إلى حادثة تثبت عكس ما اتهمتني به النيابـة، من تحريض على التخريب والفوضى، وهي حادثة كان يمكن تأكيدها ببعض الشهود الذين عاصروا لحظاتها وهم: بستاني عجوز من العاملين في قصر المحافظ، واثنان من الطلاب أصدقائي.

***

قبل انـدلاع أحداث أول العام بعدة أسابيع، كنت أمارس إحدى هوايات ذلك العمـر «الرومانتيكيـة» تحت المطـر، ففي الركن الهـادىء ـ آنـذاك ـ من أركان المدينة التي كانت جميلة، كنت أتمشي بلا هدف في الشوارع الخالية المغسولة، أتطلـع بعيون حالمة نحو الشرفات والنوافذ، وأحلم بحب جديد بعد حب ضيعته لتوِّي، وقرب الغروب، بعد أن أكمل مطر المدينة الخفيف دوره الساحر، وحول

زرقة السماء وبياض البيوت البديعة تحتها إلى حلم، كنت أمر أمام قصر المحافظ الذي تحيط به أسوار ذات قواعد خرسانية، تعلوها قضبان حديدية ذات قمم مسننة، تظاهرها ألواح محكمة من زجاج مصنفر، وفوجئت بأرنب أبيض ناصع البياض، يعدو مفلتا من شق بوابة القصر التي كانت موارية، وتلاحق الأرنب فتاة لم أر أروع منها في حياتي كلها، ثم برز بعض عساكر الحراسة يطاردون الأرنب الذي تلاحقه الجميلة، انشغلَتْ البقعة التي كنت أتمشي فيها بهذه المطاردة التي وجدتني في قلبها، ثم لم أعد أري غير الفتاة والأرنب، واختفى العساكر، كأنهم لم يكونوا هناك قط. كان طبيعيا أن أمسك أنا بالأرنب الذي رحت أطارده بطاقة كل خلية في جسدي المنتفض، وأمسكته بالفعل، حاصرته بين سور القصر والرصيف، وانكببت عليه بوجودي كله، ففاجأني باستسلامه وسكونه، كنت حريصًا على ألا يفلت مني وأنا أرفعه من مكان قبوعه بين الرصيف والسور، وبدا كأنه يشاركني هذا الحرص؛ إذ بدلاً من التفلُّت بين يديّ، أخذ يعتدل لأجيد الإمساك به، هدأ تمامًا بين صدري وساعديَّ اللذين أحاطاه بإحكام ورفق، ورحت أقترب - وهو في حضني - من الفتاة التي أخذت تقترب مبتسمة ممتنة، كانت لحظة ابتسامتها، ووثارة الفراء الأبيض الناعم الدفئ في حضني لحظة مسحورة من لحظات العمر الجميل، ثم بدأت أتبين اقتراب العساكر وهم يمدون أياديهم لأخذ الأرنب، لكنها أبعدتهم وطلبت مني أواصل حمله، حتى أعيده إلي مكانه، وانصاعوا لأوامرها الهادئة القاطعة.

هكذا دخلت قصر المحافظ للمرة الأولى، في حضني أرنب دفئ ناصع البياض، ناعم ووثير، وقلبي ينتفض من البهجة والوجل، تقودني جميلة كالحلم، ويحدق بي عساكر يكبتون غضبهم، وتبعث شرارات عيونهم الضيقة بتهديدات خفية، إن تجاوزت مالا يعرفون حدوده. قادتني الفتاة إلى ركن من حديقة القصر الخلفية المطلة على النهر، وهناك رأيت الأقفاص السلكية متعددة الطوابق، التي تسكن في غرفها عشرات الأرانب البيضاء الناصعة، كالأرنب الذي أحمل.

فتحت الجميلة بابًا سلكيا صغيرا في طابق يوازي صدري، وأومأت لي بالاقتراب لأُودِع أرنبي في مسكنه، سكبْتُ الأرنب برفق عبر الباب السلكي الصغير الذي كانت أناملها تفتحه، وكنت أقترب من وجهها الحلو لتسكرني أنقى بشرة مسستها مساً كأنما من بعيد، بعيد. كادت ساقاي تتهاويان تحتي لولا نذير العساكر، وأغلقت الأنامل الصافية باب الحجرة السلكية على الأرنب، الذي غادر صدري. شكرتني بابتسامة عذبة أحسستها تواعدني أكثر مما تودعني، لكن نفقًا من العساكر انفتح أمامي، مُحدِّدا طريق خروجي، ووجدتني خارج بوابة القصر التي أُوصِدت، أمضي مترنحًا كمن يفتح عينيه بعد حلم، خفيفًا توشك أن تطيرني النسائم، عازمًا على العودة لاستكمال حلمي، ولقد عدت، عدت مرات ومرات، أحوم حول سور القصر المدجج بالحديد، والمخفي بالزجاج المصنفر دون يأس، ودون جدوى، إلى أن دخلت القصر من جديد، ولم يكن فيه غير تلك الأرانب!

***

اندلعت مظاهرات مدينتنا في اليوم التالي لاشتعال المظاهرات في العاصمة، ففي يوم الثلاثاء وصلت أنباء العاصمة إلى المدينة مساءً، وفي الصباح التالي كانت الشعارات، التي شاركت في كتابتها ليلا، تملأ حيطان المدينة مطالبة بالحرية والعدل، وعند الضحى خرجت مظاهرات الطلبة من الجامعة، وانضم إليها سكان المناطق الشعبية، وعبر المناوشات والحواجز شقت سيول المتظاهرين طريقها في شارع الكورنيش متجهة إلى مبنى المحافظة، كانت الأعداد تتضاعف بعشرات ومئات الآلاف، وفي الظهيرة صار هناك أخطبوط هادر من نصف مليون متظاهر، يملأون الشوارع المؤدية إلى مبني المحافظة من كل الجهات، ولسبب غامض في حركة الجموع التلقائية، التي تجاوزت قيادة الطلبة، تركز ضغط الحشود على قصر المحافظ، وكنت أنا هناك، مضطربًا، خافق الفؤاد، روحي مع انتفاضة الناس في الشارع، وقلبي وراء سور الخراسانة

والحديد والزجاج المصنفر، وانفلت غضب عوام الناس وبؤسائهم.. في لحظات تساقط بلور القناديل التي تعتلي أسوار القصر، وفي لحظات تطاير كل الزجاج الحاجب للرؤية عن الأسوار، وانكشف القصر عبر الشارع.. لم يعد هناك أثر للعساكر الذين رأيتهم من قبل، وكانت ستائر الدانتيلا تتأرجح وراء زجاج النوافذ، كاشفة عن حركة محمومة في الداخل، وظهر بعض الرجال في ثياب مدنية، يهرولون باتجاه الحديقة المطلة على النهر. انتفضْتُ لخاطر مريع صعق ذهني، ونقلت الخاطر إلى بعض من كانوا بقربي من زملائي قادة الطلبة: «ستتلطخ هذه الانتفاضة كلها بالعار لو حدث أي اعتداء على أنثى داخل القصر، وستكون الاعتقالات دموية، ومبررة، حتى من قِبل من أبدوا تعاطفهم مع الانتفاضة حتى الآن». كان الصخب هادرًا، ومن الصعوبة أن نتمكن من سماع بعضنا بعضًا، وعبر احتقان الوجوه العرِقة المنتشية باكتشاف لذة الاحتجاج، لم أظفر إلا بسمع صديقين.. شققنا ثلاثتنا حشود المتظاهرين المتضاغطين أمام البوابة، وناد ينا بعض المهرولين من عمال القصر، الذين لاحوا لنا وراء قضبان السياج، عرفنا من إيماءاتهم أن ساكني القصر غادروه، وانهالت علينا من كتلة البشر أصوات تؤكد أن المحافظ قد هرب، وتم تهريب أسرته في زورق عبر النهر إلى مكان مجهول.

ضاع مني صديقاي في حراك الآلاف الذي يشبه طاحونة أسطورية، تبدو متوقفة لكنها تدور، تدور ببطء كاسح، ووجدت نفسي أمام بوابة القصر مباشرة، ووراءي منجنيق بشري هائل، قوامه مئات الآلاف من البشر، يتراجعون بطيئا على نَفس واحد صائحين: «هيلا»، ثم يتقدمون في كتلة واحدة ساحقة تصيح: «هووب» ويلطمون البوابة التي تكبل مصراعيها سلسلة ثقيلة من الفولاذ، يغلقها قفل نحاسي ضخم.. رأيت حلقة أحد طرفي السلسلة الملبسة في لسان القفل تنفتح، ويتزايد انفتاحها مع كل لطمة من المنجنيق البشري الهادر، تصك اللطمات مصراعي البوابة المصفحة، وتسحق أضلعي على حديد هذه البوابة. بدا القصر خاليا تمامًا وراء قضبان البوابة الحديدية، التي توشك على الانفجار.

لكن وفاضي لم يكن خاليا، فقد كان لي حلم هناك، على مرأى من عيون الأرانب البيضاء ورقرقة النهر الذي يحف بحديقة القصر.. صحيح أن المحافظ لم يعد موجودا، وأسرته انتقلت في زورق إلى مكان آمن، لكن من يدريني إذا ما كانت فتاة حلمي من هذه الأسرة أم لا؟ لعلها كانت على الرغم من حسنها وجمال ثيابها، مجرد موظفة تعمل بالقصر، فتاة تشريفات ممن يتم انتقاؤهن بعناية، ليلقن بالظهور أمام ضيوف القصر، الذي يحل به الرؤساء والملوك إن زاروا المدينة، فهو أحد قصور ضيافة الدولة، ومن يدريني أنها ليست هناك، مختبئة من شدة الرعب في أحد أركان القصر البعيدة، التي لا يُستبعد وصول حوشي أهوج إليها؟ تلبستني روح البطولة والشهادة اللتين هما وجهان لغاية واحدة، وقررت أن أقاوم الانهيار السريع لبوابة القصر، حتى أتأكد أكثر من مغادرة فتاة حلمي له، أعدت لف السلسلة على نفسها في نوبة جزر المنجنيق المرعب، قبيل معاودته للمد المريع، والطرق الصاعق، وباغتني المد وأنا أوشك على إتمام عملي، فجزّت السلسلة قطعة من لحم سبابتي اليمنى، ما زال أثرها باقيا حتى الآن، صرّت البوابة وقرقعت ودارت السلسلة على نفسها بسرعة، فرقعت حلقتا طرفي السلسلة، وطار القفل الثقيل في الهواء مثل ريشة، ثم انفجرت البوابة فاتحة مصراعيها لسيل المهاجمين الهادر، وكنت في المقدمة أغالب الطوفان، وأنا أدور حول نفسي وأصرخ: «لا اعتداء على النساء.. لا اعتداء على النساء»، لكنني وصراخي غَمَرنا الطوفان، ووجدت يدًا طيبة تشدني بعيدًا عن مجرى السيل، كان رجلاً مسناً، أحد بستانيِّ القصر، قال لي: «لم يعد في المكان أحد يا بني.. لا نساء ولا رجال». أوليت وجهه العجوز الطيب نظرة خاطفة، وأدركت أنه لم يهرب كالآخرين؛ لثقته بأن هيئته وعمره لن يغريا حتى الشيطان بالاعتداء عليه، عدوت كالمجنون ملاطمًا زحام المهاجمين، أصعد درجا وأعبر غرفا وأركض في أبهاء باذخة، مهجورة إلا من حُمّى البؤساء، الذين انتشروا في كل الأماكن كالجراد، وأهبط مواصلاً ركضي، فأجد نفسي في الحديقة المطلة على النهر، وهناك كانت الأقفاص السلكية متعددة الطوابق حيث الأرانب البيضاء ومئات الأيادي تمتد

إليها، تتحطم الأقفاص، وتنطلق هاربة عشرات الأرانب، التي احتضنْتُ إحداها يومًا، في حلم كالحلم!

***

خرجت من بوابة القصر أتابع ما يحدث من الخارج، مستشعرًا إشانة البقاء داخله، كان العرض كامل الانكشاف من الشارع، بعد تهشيم زجاج السور، وطيران مصاريع نوافذ القصر، التي راحت تتوالى عبرها المشاهد الجنونية: من يقفز متعلقًا بإحدى الثريات الضخمة، ويسقط بها فنسمع رشاشًا من صوت تحطم الكريستال على الرخام، ويظل هذا الصوت يتكرر دون أن نرى المنظر في الداخل.. أحدهم يشد ستائر الدانتيلا لينتزعها، ويشعل أطرافها، ثم يدليها مشتعلة من النوافذ، قطع الأثاث الثمينة تُرمى إلى الخارج، فتهوي متحطمة في الأسفل، وثمة من يمسك بأنبوبة غاز يهم بإشعالها، نسوة وعيال يعرضون على الجماهير الصاخبة – بمرح وحشي وتخلع ساخر – ملابس نسائية على شماعات وبذلات رجالية مختلفة الألوان، ومن داخل القصر الذي بدأ يحترق أسرع بالخروج حاملو حقائب السامسونايت، والمفروشات الثمينة، والسجاد، وأطقم السفرة الفضية، وأطباق وفناجين البورسلين، وفازات الكريستال والمرمر.. كانت وجوههم طافحة بالنشوة، وكانت الجماهير تغمرهم بالتصفيق، وهم يعرضون على الملأ ما ظفروا به من الهجوم على القصر، والغريب أن أكثرهم كان يشرع في إتلاف ما بين يديه بالدوس، أو التمزيق، أو التحطيم، فيما يعلو الصفير المستحسن، والتصفيق الحار.

ودون مشاهد هذا السيرك الجنوني جميعًا، وجدتني مشدودًا إلى ما يحدث للأرانب؛ فالحيوانات الجفولة المسكينة بعد أن خرجت من أقفاصها أصابها الرعب، فمجرد إنسان واحد يفزعها، فما بال فزعها من آلاف البشر الهائجين المائجين من حولها.. طاشت الأرانب تركض متفلِّتة بين غابة الأقدام والأيادي، وراحت هتافات المرح والضحك من ركضها اليائس تضاعف رعبها، حتى شلها

الرعـب، كانت الأرانب تستسلم للأيادي التي أخذت تتلقفها، وترفعها عاليا فوق الرؤوس، مع فخذات اللحوم المتنوعة، وأكياس الدجاج والأسماك التي انتُزعت مـن ثلاجات ومجمـدات مطابـخ القصر، تـدوي الهتافـات التي تقـارن جوع «الجماهيـر» بتخمـة «السادة»، وتتلفـت رؤوس الأرانـب، وتطـرف عيونهـا باستغـراب ورعـب، وهي تطفـو فوق بحر الجماهيـر الصارخة، وبعـد أن أدت الأرانـب دورهـا بين أيدي قـادة الهتافات، تـم إنزالها لتتخطفها أيـادي النسوة، اللائـي انضممن إلـى التظاهرات من الأحيـاء الشعبية الفقيرة، كـن يحلمن بأكلة ملوخية بالأرانب، كتلك التي وضح أن المحافظ يدمنها!

***

السلطـات التي تبخرت في النهار أعادت التكاثف في بـرودة المساء، بعد أن خلت الشوارع مـن حشود المتظاهرين، جمعت قواها، وارتدت ثيابها الرسمية، وأخرجت عرباتها الزيتية المدججـة بالسلاح والعصي، والضباط الذين استعادوا هيبتهـم، نشرت مخبريهـا، وبدأت الاعتقالات بعد منتصـف الليل. كان اعتقالي محتمـلا لكنه لم يكـن أكيدا، لأنني لم أكـن من قادة التظاهـرات، الذين رفعتهم الجماهيـر فوق الأكتـاف؛ ليهتفوا ويردد الآلاف هتافـاتهـم، كنت معارضا نعم، لكـن دوري لم يتعد الكتابة فـي مجلات الحائط داخل الجامعـة، والحديث في المؤتمـرات الطلابية، أما في المظاهـرات فكنت مجرد فرد بين الحشود، أخجل من مجرد الصياح عاليا مع الهاتفين.

مكثـت في البيت حتى الثانية بعد منتصف الليـل دون أن يواتيني النوم، كانت أضلعـي التي انسحقت على فولاذ بوابة القصر في النهـار، تستيقظ آلامها ضارية فـي الليـل، تناولت أقراصا مسكنة قوية، وما إن بدأ أثـر المسكن يظهر، حتى أتى مـن يخبرني بـأن هناك حملـة مداهمات تجـري في الأحيـاء الشعبيـة المحيطة بالميـدان القديم، أدهشني الخبـر، لأن ذلك كان يعنـي أن يقبضوا على الآلاف، لكـن الآتي بالخبر استطرد مبينا أنهم يقبضون فقط علـى من يجدون في بيته أرنبا

من أرانب المحافظ؛ لإثبات عمليات السلب والنهب، لعلهم أرادوا أن يضيفوا شقا جنائيا للقضية التي يريدون إخراجها من إطارها السياسي، لتتلطخ بجرائم التخريب والسرقة، شعرت بالانتعاش مع سكون آلام صدري، وبدلا من الخلود للنوم بعد مشقة النهار الفائت، وجدتني أرتدي ثيابي وأدخل في شجار مع أبي وأمي، اللذين حاولا استبقائي في البيت؛ خوفا عليَّ من الخروج في هذا الوقت من ساعات حظر التجول، التي أُعلن عنها في الراديو والتلفزيون في نشرات المساء، لكنني خرجت، وقادتني قدماي المسرعتان إلى الميدان القديم، كنت أتصور أنني سأقبع في ركن من أركانه؛ لأراقب تلك المداهمات المسكونة بالمفارقة، محاذرا أن أحتك بالمخبرين والضباط، الذين انتشروا في المكان، والذين كانوا مفوَّضين للقبض على أي إنسان لمجرد الاشتباه، لكن القبوع لعدة دقائق في أحد أركان الميدان المتوارية، ومشاهدة ملامح الاضطراب والهرج بين المخبرين والجنود، وبعض الأهالي الذين تجمعوا هنا وهناك، عند فوهات الشوارع المفضية إلى الميدان، كل هذا جعلني أخرج من مخبئي وأقترب مما كان يحدث.

ثمة مطر غزير هطل ثم توقف بعد دقائق، تاركا أرض الميدان تلمع بالبلل، والمصابيح تحوطها هالات من الضباب، ثم كانت الأرانب تظهر بيضاء مرتابة، خارجة من الشوارع، وسرعان ما تردها للدخول في الشوارع من جديد ضربات خيزرانات المخبرين، وتهويشات عصي جنود الأمن، والطرقات على كعوب البنادق، وصيحات الضباط الحانقة.. كان المطلوب أن تكون الأرانب داخل البيوت؛ لضبط أصحابها متلبسين بالجرم، وبعد القبض على اثنين من المواطنين بهذه الطريقة طارت التحذيرات فوق الأسطح، وعبر الحيطان الهشة المكونة من السدة والصفيح والطوب العاري، تُنبِّه إلى ضرورة الإسراع في إخراج الأرانب وإبعادها عن البيوت، بدأت المعركة في صمت وحذر من جانب الأهالي، وخشونة واندفاع من جانب فرق الأمن، هؤلاء يزلقون الأرانب خارج فتحات أبوابهم الموارِبة، ويهشونها بهمس لتبتعد، وأولئك يقفون في وجهها، ويدفعونها

إلـى الخلـف بعصيهم، وكعـوب بنادقهـم، وركلات الأحذية الثقيلـة، ثم تحول النـزال إلى تحدٍّ مكشـوف من قبل الأهالـي، أطلقوا عيالهم لإبعـاد الأرانب عن بيوتهـم، ومن يلوم العيـال؟! ثم دعموا جهـود عيالهـم بإصـدار ضجيـج هائـل يُفـزع الأرانب، ليخرجها كلية من الشـوارع باتجاه الميدان، صفير، وطرق على الأبـواب، والصفائـح، وقـرع للأوانـي بأغطيتهـا، ودق للهاونـات النحاسية، صيحـات مدويـة، وصراخ، بـل كانت هنـاك زغاريد تنطلق مـن أجواف تلك البيوت البائسة!

هـرج عظيم اشتعل في المنطقـة، وظل متوهجًا حتى الفجـر، دون أن تتمكن قـوات الأمن من إعـادة أرنب واحد إلـى داخل البيت الـذي كان فيه، واتخذت محاولات رد الأرانب إلى داخل الشوارع والبيوت طابعًا وحشيا من قبل الأمن.. راحـت تهويشـات العصـي الثقيلـة، وطرقات كعـوب البنادق علـى الأسفلت، وركلات أحذيـة البيـادة، تتوجه كلها لإصابة رؤوس الأرانـب وأجسامها بشكل مباشـر، أخـذ الدم يظهر علـى الرؤوس الصغيـرة، والآذان الطويلـة المتأرجحة، والفـراء الأبيض.. فـي البدء كنـت أراقـب ما يحـدث بعيون تسخـر من وقائع المسخـرة، ومع بدء تلطيـخ الدماء للبياض الناصع الـذي ضممته إلى صدري في يـوم رهيف بـدأت أسخن، وكدت أوقـع نفسي بين أيادي قـوات الأمن في تلك الليلـة، لكن عنصرًا غامضًا تدخّل مغيرًا المشهد تغييرا مفاجئًا، أسكتني، وأسكت الهـرج، والضوضـاء، وضربـات العصي، وكعوب البنـادق، والأحذيـة الثقيلة، والزغاريد والصيحات وجمّد كل الفرقاء في أماكنهم، لقد ظهر نور الفجر، كأنما بغتـة، وضاعفته مرايا الميدان والشوارع المبلولة، فكان في قوة نور الصبح، وفي هذا النور اكتشف الجميع اختفاء الأرانب!

ظن الضبـاط والمخبرون أنها تسللت إلى البيوت خفيـة، لكن تفتيشا عدوانيا دقيقـاً وشامـلا استمر حتى ظهيرة اليوم التـالي لم يسفـر عن شيء، واكتفى الأمن بالقبض علـى من وجـدوا بين أوانيـه حلـة ملوخيـة بالأرانب، أو حتى بدونها! أما أنـا، فقد انصرفت مع الشروق دائخا من قلة النوم وكثافة التداعيات، لم أرجع إلى

بيتنا حذر الاعتقال، بل تواريت في بيت أقارب لي، وقُبض عليّ بعد ذلك بيومين، وأنا أوزع منشورات تطالب بالإفراج عن زملائي من الطلبة الذي اعتُقلوا.

***

ستة وعشرون عاما مضت، وأعود إلى ليل المكان ذاته، الميدان القديم، في ظلمة أحلك من ظلمة تلك الليلة البعيدة، أنتظر ظهورًا غريبا لأرانب بيضاء تتجلى في هذا السواد السابغ، عشرات من الناس تجمعوا في أركان الميدان الموارية ينتظرون الأعجوبة، وعشرات مثلهم كنت أستطيع لمح رؤوسهم في الشرفات والنوافذ المطلة على الميدان، يتطلعون إلى الظلمة، لقد عرفت بعض التفاصيل عن تلك الأرانب، التي ارتبطت بجزء ملون من عمري العزيز البعيد، فهي من نوع «البوسكات»، تتميز إضافة إلى فرائها الأبيض الناصع الناعم الغزير، بنمو متسارع يجعلها في حجم حملان صغيرة، وهي في عمر شهور قليلة، عيونها ذات أحداق قرنفلية، وحركتها المتأنية مرنة، تبدو أقرب إلى التساحُب على الرغم من أنها عند الضرورة تقفز قفزات واسعة عالية، وتجري بسرعة كبيرة لمسافات محدودة، كان عددها في «بطاريات» الأرانب بالقصر ٩٨ أرنبا، عُثر على ثلاثة منها ميتة في حديقة القصر، وثلاثة غيرها ميتة في شوارع منطقة الميدان القديم، وتم ضبط أربعة منها مطبوخة في أربعة بيوت فقيرة، اثنان منها مع الملوخية واثنان بدونها، وُضبطت امرأتان تمران باثنين منها أمام مركز شرطة القسم الثاني عصر يوم المظاهرات، ولم تسفر حملة مداهمات ليلة الأربعاء إلا عن أرنبين في بيتين تم القبض على كل ساكنيهما حتى الأطفال منهم.

أما الأرانب المتبقية وعددها ٨٤ فالأرجح أن معظمها كان في موقعة الميدان، التي انتهت بذلك الاختفاء الغامض عند الفجر، لقد قيل الكثير في تفسير سر اختفاء تلك الأرانب يومها، ابتداء من أنها وجدت شقوقًا بين جُدران البيوت المتداعية، وغاصت فيها، مرورًا بأنها تساقطت في بالوعة صرف مفتوحة، أو أسقطت نفسها عمدا؛ لتهرب من البشر، سواء هؤلاء الذين كانوا يطحنون

عظامهـا بعصيهم، وكعوب بنادقهم، وأحذيتهم العسكرية الثقيلة، أو أولئك الذين جعلهم الجـوع المزمن يتنمرون ويتعجلون سلخها، وهي حيـة والتهامها قبل أن تنضج. ثـم كانت هناك تلك التفسيـرات الخارقة التي تضفـي طابعًا سحريا على هذه الأرانب، ولغز اختفائها الغامض.. وها هي ذي ست وعشرون سنة تمر، ولا يـزال اللغز لغزا. تغير الميدان تغيرا وحشيا، تكاثرت على محيطه الأبراج السكنية والإداريـة، حوشيـة الهيئات والألوان، وظل ما وراء هـذه الأبراج يكشف عن أن شيئـا لم يتغير، بل تفاقـم، فالبيوت البائسة لا تزال بقاياها فـي أماكنها وإن تردت أكثـر، وما أزيح منها عاد يتجمع عند الأطراف البعيدة، في شكل عُشش من القش وبيـوت من الطين والصفيـح، يسكنها من يخبئون في جوعهـم المزمن استعدادًا لسلخ أي أرانب وهـي حية، وأكلها ولو نيئة.. ستة وعشرون عـامًا لم تكف لحل لغـز كائنـات بسيطة، ونـزال دميم، لم يُحسم، فهـل أجد في عمق هذه الليلة حلاً للغز الذي عاش معي، ومع المدينة التي كانت جميلة، كل هذا العمر؟!

أتـت الساعة الثالثة الحالكة بتثاقل هامد، كان أسفلت الميدان مبلولاً بأثر مطر عجـول كما في هذا الوقت من السنة، ولم تكن مرايا الميدان المبلول تلمع ؛ لأن الظلمـة بدت كاملة وشاملة؛ فـلا قمر في السماء، ولا نجـوم يرتعش ضوؤها في الصفاء المفتقَـد، كنت أنتظر الأرانب، وغيري كثيرون ينتظرون، وخلسة، خلسة وبـلا مباغتة، رأيـت، أو أظنني رأيت، قطعًـا من ظلال بيضاء تنسـاب صامتة في دائـرة الميدان السوداء، تحت أقـدام البيوت والعمائرَ العاليـة، تتكاثر وتتلاصق، حتـى يبدو سواد الميدان وقد ترقط ببياضها الخفيف المتقلب، وهي تدور وتمور وإن فـي ونـى وهمود، ثقـل قلبي في صدري، وكنـت أسائل نفسـي متحيرا عن حقيقة ما أراه. ■

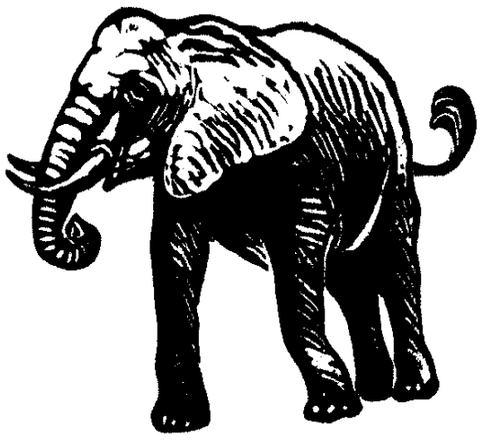

● والفيلة هولها في العين واحد؛ فاحذر أن تتخذ ظهورها كالمناظر والمسالح والأرصاد. وللفيل قتال وضرب وخبط بقوائمه، وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرجل بوطء الفيلة قد دربت على ذلك. **(الجاحظ -- كتاب الحيوان)**

● الفيل خلق عجيب، ومعتبر لمن فكر، وكل شيء عجيب، فهو أبعث على التفكير من غيره. **(الجاحظ – القول في البغال)**

● عندما ذهب تاركين هال إلى آسام في شمال الهند، ليسجل عملية اصطياد فيل هائج قتل أربعين إنسانا، اكتشف هال أن الفيل أسيئت معاملته طويلا من مالكه السكير، وكان يعاني قسوة أصفاد حديدية ثقيلة، وصدئة غاصت بعض حلقاتها في لحم إحدى ساقيه. **(الصحة البرية – باب الأمراض النفسية -- سيندي أنجل)**

على ظهر فيل

مثل الرعب الذي عانيته على ظهر ذلك الفيل الصاعد إلى قلعة «جايبور» لم أعرف قط، على الرغم من أن حياتي بها الكثير من لحظات الرعب التي اكتنفت أسفاري، بدءًا من رحلات الصبا المتصعلكة على ظهور القطارات حيث يختبئ المسافرون الفقراء لحد الإدقاع، واللصوص، والمتشردون، وأسلاك الكهرباء التي يمكن أن تقطع رقاب من لا ينتبه إليها، والجسور التي تظهر فجأة فوق الرؤوس، وتوشك على تحطيمها، إذا لم ينبطح «المُسطّحون» متمددين على بطونهم في اللحظة المناسبة، وبعد صعلكة الصبا جاءت أسفار السيارات المضعضعة، والحافلات المتهالكة التي سارت بي على حواف جروف جبال

البحر الأحمر، ومهاوي جبال لبنان والفوالق المميتة في هضبة التبت، لقد مررت فوق قمم جبال لاوس في طائرة روسية عتيقة تحترق، واجتزت فوران نهر الزامبيزي، وانعطافاته، وانحداراته الخطرة في زورق «كانوي» متآكل، لم يكف عن الطفو والغرق طوال الرحلة، وأنا لا أعرف السباحة. عبرت مناطق الألغام التي يسمونها «حقول القتل» في كمبوديا مشيا على الأقدام، وطفت في حوامة فوق مساقط المياه السحيقة لشلّالات فيكتوريا، ومارست باحتراف رياضة الجمباز لسبع سنوات كاملة بهدف نهائي واحد، هو أن أتحول إلى لاعب «ترابيز» في السيرك، يواجه الموت في كل قفزة على العقلة الطائرة، من أجل تحقيق دورة خلفية واحدة حول نفسي في الهواء، «باك ثمرثولت»، أو دورتين.

***

إنني مولع بالرعب لأسباب أخرى، غير تلك التي يضعها النفسانيون في إطار الأفعال التعويضية ؛ لأنني ببساطة تذوقت في مواجهة الرعب ألوانا من اللذة والنشوة لا يمكن لمن جربها إلا أن يطلبها مرات ومرات.. أحاسيس جسدية مجتاحة تُفتِّح مسام وجودك العادي على آفاق خافية من الوجود، بهرة الضوء الذي تتوسع له الحدقات، وقشعريرة الجلد الذي تهرب منه الدماء، وخفقان القلب المثير، والسخونة الحارة التي تندفع عبر عمودك الفقاري إلى صميم يافوخك.. ذلك التأهب الخارق الذي ينتفض في أطرافك الأربعة ويمور به الجسد كله، الشعور بذروة اللياقة مع ذروة الرعب، إنها نشوة «الأدرينالين»، كما يقول بحث علمي أُجري على رواد رياضات المخاطرة، مثل القافزين بمظلات مغلقة من الطائرات، ومتسلقي الجبال، ومُجذِّفي قوارب «الرافتنج»، في الأنهار الصخابة والشلالات، والماشين على السلك المشدود بين ناطحات السحاب، أو المتسلقين على واجهات هذه الناطحات حتى قممها.

لأجل هذه النشوة، ولتكن نشوة الأدرينالين كما يقولون، ألقيت بنفسي كثيرًا في أفواه الخطر، وكنت أختار الوسائل الأقل أمانا بدلاً مما هو آمن ومريح،

لأنتشي، فأندهش، وتكون رحلاتـي وسفراتي أمتع، ولا يمكن نسيانها؛ فغالبًا ما تكـون الوسائل البدائيـة وغير الآمنة هي الأكثـر نجاحًا في الوصـول إلى البكر، والنائـي، والمخفي عن العيـون. بهذا المنطق فضلت أن أصعد إلى قلعة «جايبور» علـى ظهر فيل، لا سيارة أو ميكروباص من تلك المجهزة بإطارات خاصة، والتي كانـت تصعد إلى القلعة على الطريق حادة الارتفـاع، الضيقة والحرجة، والمطلة مباشـرة على مسقط مخيف بارتفاع خمسمائة متـر، ينتهي بحوض بحيرة جافة، تحتشد فيهـا الصخور والأحجار قاتلة الأطراف والحـواف، ثم إن الصعود على ظهر الفيـل كان ينشـط المخيلة ؛ لاستعادة صـور وأحاسيس المهراجـات الذين شيـدوا القلعـة فوق هـذا المنحـدر، وسكنوها جيلاً بعـد جيل، قبـل أن يتلاشوا وتتحول القلعة العالية الهائلة إلى مزار، وأعجوبة.

***

كنـت أعرف أن ركوب الفيل ليس تجربة جميلة بكاملها، صحيح أن الإطلال علـى الدنيا مـن فوق ظهر متحرك بهـذه الضخامة، وذاك الارتفـاع، خبرة بديعة الإثـارة، لكنها معجونة أيضا بآلام جسدية لا قبل بها إلا لمعتادي ركوب الأفيال، مـن الآسيويين مرنـي وضئيلي الأجسـاد، والذين تنم عن مرونـة أجسادهم تلك الجلـود الملسـاء والمفاصل الدقيقة، فالفيل ليس جملاً يؤرجـح راكبه إلى الأمام والخلف، بمـا يتوافق مع الانثنـاء والاعتدال المُتاحين للتكويـن الطبيعي للجسد البشـري، وليس حصانًا يبختر فارسـه أو حمارًا يهزهز ممتطيه.. الفيل هضبة حية تتحـرك على أربعة قوائم راسخة، تتنقل بتـؤدة ثقيلة وفي تبادل داهم.. قدم أمامية يمنـى ترتفع، مع قدم خلفية يسري لطبع خطوة جبارة على الأرض، ثم قدم أمامية يسـرى مع قدم خلفية يمنى في خطوة جبارة تالية، ومع كل خطوة جبارة، يحدث انزيـاح أليم للأجساد البشرية المتشبثة بمواقعها على الظهر العملاق. مصدر الألم هـو هذا الانزياح، الذي يكون فـي محور مائل مديد، غيـر منـاسب لاستجابات الجسـد البشري العـادي، الذي لم يألف ركـوب الأفيال منـذ الصغر. خطوات

راسخة، واسعة، ثقيلة، تجعل أجزاء مفاصل الراكبين تطحن بعضها بعضًا كأحجار الرحى.. أجزاء العمود الفقاري خاصة، ثم عظام الحوض، والترقوة، ومفاصل الكتفين. تجربة موجعة خضتها من قبل في جزيرة تتوسط نهر الميكونج قرب «فنتيان»، وفي مجمع تراثي ببانكوك، لكنني لم أتورع عن تكرارها في جايبور، متوقعًا الألم، لكنني لم أكن أتوقع الرعب.

***

في السفح المنخفض الذي يبدأ منه الطريق الصاعد إلى القلعة، كان «موقف» الأفيال، وهي تتوالى إلى جوار سور بارتفاع طابق واحد، يمثل منصة بشرفات مفتوحة، تُفضي إلى ظهورها العالية. كانت الأفيال ملونة برسوم لأغصان وزهور تحيط بأعينها وتفرش جباهها، ممتدة إلى خراطيمها الطويلة، وكانت السروج على ظهورها، حيث يجلس الركاب، تشبه أسِرّة من الحديد المشغول، متسعة ومفروشة بمرتبة كبيرة، ووسائد تبطن «درابزين» الحديد المشغول، الذي يسيجها، بارتفاع يقارب القدم لحماية الركاب من احتمالات السقوط، وكانت تلك الأسرة مثبتة في استواء أفقي بواسطة أحزمة من جلد عريض وثخين، رجحت أنه لا يمكن أن يكون إلا من جلد فيل حول البطون العظيمة الجعدة، التي بلون الجرافيت.

صعدت مع الصاعدين على درج حجري، يؤدي إلى أعلى السور، حيث الشرفات التي ننتقل منها إلى الأسِرّة فوق ظهور الأفيال، لكن حركة الصعود بدت متباطئة أكثر مما ينبغي، ولاحظت وجودًا كثيفًا لأفراد الشرطة الهندية، وتنامى إلى سمعي كلام عن أن هناك تفتيشًا دقيقًا، يجري قبل السماح بالركوب، وأن هذه الإجراءات الأمنية تأتي احترازًا بسبب الوضع في كشمير، وتداعيات الاشتباكات الطائفية في حيدر أباد، وتفجيرات قطار مومباي. قلت لا بأس، فالاحتراز واجب، والتطرف أعمى، لا يُفرِّق بين قطار وفيل، وبين خصوم ومحايدين، أو بين بشر وحجر، فالمهم لدى أهل التطرف أن يفجِّروا، وأن

يشخّصوا أعداء لإيذائهم بهذه التفجيرات، لكنني عندما صعدت إلى أعلى السور استهجنت أن التفتيش بعد أن يشمل الحقائب والأكياس التي يحملها الذاهبون للركوب، وكذلك ثيابهم، ينتقل إلى الأصابع العارية، يمسكون بالأيادي ويرفعونها؛ لتكون في ضوء الشمس قريبة من عيونهم، ويتفقدونها أصبعًا أصبعًا، ثم يكررون ذلك مع أصابع الأقدام بعد إجبار الناس على الجلوس، وخلع أحذيتهم وجواربهم! خضعت حانقًا لهذا التفتيش، وبعد أن أخذت موضعي في ركن السرير السرج على ظهر أحد الأفيال، لم أستطع التخلص من استهجاني، الذي تحول إلى استغراب، وانشغلت عن بدء حركة الفيل في طريق الصعود بمحاولة حل لغز الأصابع...

***

كان على الظهر الذي نركبه عشرة أشخاص غير السائس الذي يجلس في المقدمة قرب رأس الفيل، ومن بين العشرة كان هناك أربعة شبان صغار لم يكفوا عن التغامز والتضاحك، وهم ينكشون أطراف أصابعهم بعيدان قش صغيرة، يمدونها إلى الأمام وأسفل في ملامسة الفيل، فيلتفت إليهم السائس محدقًا إلى أطراف الأعواد، ثم يرشقهم بنظرات غاضبة، ويرغي بكلام سريع باللغة المحلية يبدو أنه شتيمة أو تهديد أو الاثنان معًا. يزدجرون للحظات، ثم يعودون إلى تكرار الضحك، والتغامز، والمعابثة. ملت متسائلاً بملامحي وإشارة من يدي على واحد من الفتيان الأربعة كان بقربي، وكانت به ظلال من الخجل والرقة، على الرغم من مشاركته المتشاقية لزملائه الثلاثة، وبالفعل تلاشت من وجهه الأسمر الناعم ملامح الشقاوة، وبدا خجولاً وهو يجيبني بإنجليزية ذات لكنة: «آنتش». لبرهة بدت الكلمة غامضة تمامًا لأنني لم أتوقعها بهذه اللكنة، ثم أضاءتها في ذهني المدهوش إشارة إضافية من أصابع الشاب، تمثل حركة دقيقة، منمنمة، متسارعة.. شهقت نابسًا في استغراب وتساؤل: «نملة.. نمل»؟ فأومأ الفتى مبتسمًا في خجل، ثم تواصل التهامس بيننا لأعرف أن النمل صار آخر

ابتكارات التطرف لتنفيذ عمليات ترويع في البلدان، التي تستخدم الأفيال دابة للنقل والجر وأغراض السياحة والمهرجانات.. في لاوس وكمبوديا وميانمار وتايلاند وسيريلانكا ونيبال والهند. لا أحد يعرف حقيقة العملية الأولى، ولا أين جرت على وجه التحديد، لكن «التقنية» اجتاحت إنذاراتها المنطقة مثل وباء قاري، وتكاثرت الحكايات التي تروي وقائع هياجات جنونية للأفيال التي تُدَسُّ في آذانها النمال، فتُجنُّ معربدة ساحقة عشرات البشر تحت أقدامها الثقيلة، وتخرب بيوتا ومحالَّ وسيارات وحدائق، بأكثر مما تستطيعه أي شحنة متفجرة في سيارة مفخخة أو كمين ملغوم...

***

بعد أن تجسّد لي موضوع الترويع بالنمل هذا، وقد تداخل لإكمال صورته أكثر من صوت ممن كانوا على ظهر فيلنا، رحت أفكر في أن من يحتمل قيامهم بمثل هذه العمليات لا يمكن أن يكونوا الشيء نفسه أبدًا، لا أيديولوجياً، ولا دينياً، ولا عرقياً، ولا سياسيًا؛ فالمعارضات والمناوآت المسلحة في هذه البلدان طيف واسع من الألوان المتنافرة، بارونات زراعة وصناعة وتجارة المخدرات في جنوب لاوس وشمال تايلاند، شيوعيون ماويون في نيبال، مافيا الياقوت في بورما، عصابات أشجار البخور في كمبوديا، وانفصاليون بمزاعم دينية وعرقية شتى، في سيريلانكا، وبعض الجزر الإندونيسية، وشمال الهند، فرّقتهم المشارب والمذاهب وجمع بينهم النمل للأذى. وهل يمكن أن يكون هذا غير أذى؟ وهل يمكن للأذى أن يكون وسيلة لإصلاح أي أذى؟ هل تبدّدت البصيرة وتكاثف العمى؟ هل هناك عيون للنار التي تُضرم في البيوت لتنتقي ضحاياها؟ هل هناك عيون لشحنة ناسفة خُبئت في صندوق قمامة، أو سيارة مفخخة، أو تحت مقعد قطار؟ وهل هناك عيون للنمل عندما يدخل في ظلمات دهاليز آذان الأفيال؟ هل يعوض عماه بنهش أهداب الأعصاب بالغة الحساسية التي تعيق محاولاته للهروب، بفكوكه المدببة الدقيقة ينهش تلك الأعصاب العارية؛ فيكهرب مخ

الكائـن السرمدي الضخم بصعقات تفجّر جنونـه، ينتفض فينفـض الراكبين على ظهـره؛ ليهـووا إلـى الأرض من شاهـق، مقذوفين بغضب فيـل داهمـه الجنـون، يهـرول بثقـل أطنان جسمه الهائـل؛ فيسحق تحت رحى أقدامه مـن سقطـوا عن ظهـره، ومن تصـادف وجودهم بقربـه، يتخبط هازاً رأسـه الضخم ليطرد ذلك الشيء الناهش في عمق أعصابـه، فيترنح ساحقًا أجنابه على الحيطان هنا وهناك، ويسحـق مـن يتصادف لوذهم بهذه الحيطان؛ ظنا أنهـا تنجيهم من قيامة فيل جن جنونه؟

***

تلبثتني صور الفزع من أشكال الموت دهما، والتي يمكن أن أكون ضحية في واحـد منهـا من جراء احتمال هيـاج فيلنا، أن أسقط من فـوق ظهره على حجارة الممـر الصاعـد نحو القلعـة؛ فتتهشم عظامي، ثـم تكمل فرمي قدمـه، أو أقدامه الثقيلـة العملاقة، أن أنجو من سقطة الظهر لكنني فـي اندفاعة مرتبكة نحو جدار الصخـور، في الجانب الأيمن، أهيئ الفرصـة لانسحاقي حتى العظام، بين جنب الفيـل والحجر، أو أهوي بعيدا عنه وبعيدًا عن صخور الطريق، وحجارة الجانب الأيمـن، لكنني أواصل السقوط بعيدا في الأسفل، نحـو قاع البحيرة الجافة على مبعدة خمسمائة متر؛ لأتمـزق على حواف وأسنان الصخور القاتلة، التي تكويها شمس «راجستان» الحارة، ويزيـد فتكها عطش جفاف مديـد، لم يبرح المنطقة منذ أعوام عديدة طويلة.

***

لـم أعـد أرى غير صورة موتي الدامي وأنا على ظهـر الفيل. كنا قد قطعنا ثلثي الطريـق حيث يتبـدّى الارتفاع مرعبًـا، وحوض البحيـرة الجافـة فاغر الإفزاع. وجـدت نفسي مُعرِضًـا تماما عن الاستمتاع بروعة منظـر الصعود ومراقبة أبراج القلعة البيضـاء الدانية، ووضاءة السهل الأشهب الفسيح تحـت سماء أليفة قريبة. كنـت ممتلئًا بمراقبـة الراكبين معي على ظهـر الفيـل، أيهـم هـو المجرم الذي

يخبـئ النمل في ثنية بين أصابعه، أو تحت أظافـره أو في ركن من جيوبه ويكمن مترصـدًا اللحظة المختلسة ليطلق نملته، أو نماله باتجاه أذن الفيل؛ ليتفجر جنونه فـي تلك البقعـة القاتلة؟ لابد أن ذلك المجرم سيفعل ذلـك، ويجد وسيلة للهرب في اللحظـة المناسبة متدليا بشـكل ما ليهبط بسرعة، ويبتعد عـن الفيل الموشك علـى الالتياث. هل ستبهجه النتيجة الدامية والمخربة التي يتوقعها من إثارة جنون الفيل؟ أسينتشي بالفرجة على البشر وهم يهوون، ويتهشمون، وتتمزق أجسامهم علـى الحجـارة وحواف وأسنـان الصخـور، أو تنهرس مدمّاة علـى هذه الطريق الحجرية؟ لابـد أن هنـاك نشـوة ذاتيـة ما يستشعرهـا هـؤلاء غيـر ما يزعمونـه، أو يعتنقونـه من آراء سياسية، أو معتقـدات دينية، أو ثارات عرقية. هـل هـي نشـوة تشبـه ما أحسسته مِـرارا في مواجهة الأخطار؟ نشوة أخـرى للأدرينالين تجعل مـن يقومون بزراعة الرعب وإثارته، دون أن يصيبهم، تهيج أجسامهم؛ فيوشكون علـى الطيـران بفرح شقي، يُفعِـم التحقق الدمـوي تلك الأجسام بطاقـة استنفار خارقـة، إذ تومض فـي عيونهم صور الأجسـام البشرية المدمّـاة، التي جعلوهـا تتقطع أو تتثقـب أو تندهس، فتجتاح بشرات جلودهم قشعريرة شبق، فيما رجفة التـذاذ خفي تهز دواخلهم، ولا يكشف عنهـا إلا التماع شهواني يبرق في العيون المتلصصة؟

لم أستطـع أن أرى نفسي إلا مدهوسا، أو مهروسا، أو أهوي في اتجاه حواف وزوايـا الصخور، التي أمضَى شفراتها وأحـدّ أسنانها الجفاف والتهاب الشمس. كان الفيـل يبدو كأنما يصعد على جدار مائل وهو يرتقي الثلث الأخير من الطريق الصاعـدة نحـو القلعة، على الرغم مـن التصـاق الركـاب بأماكنهـم والتشبث بسيـاج السـرج الحديـدي، أو إنشـاب أصابعهم فـي قماش المرتبـة السميك تحتهـم، إلا أن صعـود الفيل ـ وقـد رأينا رأسه الضخم يظهر عاليـا أمامنا ـ أزاحنا جميعًـا إلـى الـوراء، وكدس أجسادنـا العشرة فـي الركن الخلفـي. كانت هناك صيحـات استثارة، وصرخات مـرح، لكن صرختي لم تكـن إلا رعبًا خالصًا، إذ وجـدت نفسـي أنقذف، ثـم أنزلق علـى كفل الفيل خـارج الحاجـز الحديدي

وأصابعي تتشبث بغضون الجلد الرمادي السميك في فزع، بينما أقدامي تهوي في فراغ. وبتلك اللياقة المعجزة التي تتفجر في كيان المرعوب استطعت أن أمسك بذيل الفيل بين قبضتيّ المحكمتين، اللتين عملتا بدقة لا شعورية متناهية متيحتين لثقلي أن يهبط، وكأنه ينزلق على «ماسورة» ثابتة نحو الأرض.

وبحسابات اليقظة الفائقة للمرعوب، وبينما قدماي على مقربة نصف متر أو أقل من الأرض، استعاد جسدي ذكرى بعيدة للاعب جمباز يُطيِّر جسده في حركة «آرش سوينج» خاطفة توسِّع أرجحته لتبعده عن «بار» «عقله» أو طرفي «متوازي». أفلتُّ ذيل الفيل، بينما جسدي يبتعد عن حراك القدمين الثقيلتين الساحقتين. سقطتُ على كعبيَّ بعيدا وقرفصت متدحرجًا لأنطرح على ظهري، ثم أميل على جانبي في النهاية، وأُحدّق.. كان الفيل يواصل صعوده، بينما الركاب على ظهره ملتفتين ينظرون نحوي بعيون واسعة؛ من فرط الاستغراب! ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

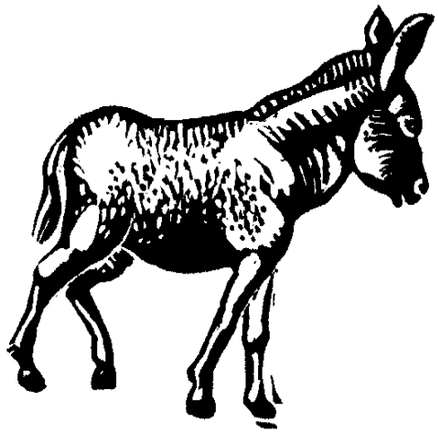

● والحمارة في المنام امرأة معينة على المعيشة كثيرة الخيرات، نسل وربح متواتر. ومن ركب حمارة في منامه خلفها جحش فإنه يتزوج امرأة لها ولد. ولفظ الأتان من الإتيان، وربما دل صياحها على الشر والأنكاد.

● لبن الأتان يسقى منه الصبي الذي يكثر بكاؤه يزول عنه.

(القزويني – عجائب المخلوقات)

الأُتُـــــن

لابـد أن أذكر، وأنا أستعيد كل شيء؛ لعلـي أفهم ما حدث، أنني استيقظت من قيلولـة العصـر يومها مخدَّرًا نشوان كمـا لم أعتد أبدا، وكأننـي ثمل، وقد يكون ذلـك بسبب الجهـد الذي بذلته فـي الصباح، لتسفيـر زوجتـي والأولاد لقضاء الإجـازة في بيت جدتهـم، وأيضًا للهدوء المفاجئ الـذي ران على الشقة بعد أن صـرت وحدي فيهـا. أعددت كوب الشـاي بالنعناع الذي أصحـو بعد القيلولة مشتاقًـا إليه، مضاعفًا كمية الشاي وكذلك النعنـاع وبعض السكر، ولم أكد أرفع كـوب الشاي إلى فمي بعـد أن استرخيت على أحد الفوتيهـات في الصالة، حتى روعنـي جرس «الإنتركم»، المثبت إلى جـوار بـاب الشقة، رن رنينا مفزعًا وكأن قوتـه وحدّته تضاعفتا عشرات المرات، انتفضت واقفًا، وانسكبت أول رشفة من الكـوب الساخن على يـدي، ووقع بعضها على البلاط الفاتـح اللامع بين قدمي، تماسكـت بالكاد مانعًا سقوط الكوب من يدي الملسوعة، ووضعته في غيظ على

المنضـدة الصغيرة إلى جـوار الفوتيه، ثم أسرعت لأُسكِـت إرهاب «الإنتركم»، رفعت السماعة حانقًا، وصرخت كما لم أفعل قط في حارس البناية المناوب عند المدخل:

– إيه يا عم حسين.. إيه؟

– ضيف طالع لك يا دكتور.

– وإذن.. أي ضيف.. ما اسمه؟

فـي العادة لم أكن أسأل عن مثل هـذه التفاصيل، ولم أرفع صوتي كما في هذه المـرة، كنت أكتفي بالقـول في هدوء: «خليـه يتفضل»، فمعرفـة القادم لم تكن تتأخـر أكثر من دقيقة، أي الوقـت الذي يستغرقه المصعد حتـى يصل إلى الطابق الثالـث، الـذي تقع فيه شقتـي. بوغت الرجل الطيـب «عم حسيـن»، ويبدو أنه ارتبـك تمامًـا إذ ظل ساكتا، لكن بـدلاً من إجابته سمعت قرقعـة عالية سرعان ما تلاشت، وتناهى إليَّ صوت غريب يحادثني:

– «عفـوا.. أنـت لا تعرفنـي.. لكننـي أعرفك.. أعرفـك تمامًـا.. أنا صاعد إليك».

عـادة مـا أكون سريـع الانفعال إلـى درجة ارتـكاب الحماقات فـي مواجهة الصفاقة، ورد الفعل الذي كان يناسبني في حالة كهذه، أقله أن أصب «دوشًا» من الغضـب على رأس المتطفل في مثل هذه الساعـة، لكنني بدلاً من دوش الغضب الـذي كان ينبغـي أن أصبه علـى صاحب الصـوت الغريب خـلال الإنتركم، وجدتـنـي أتلقي «دوشًا» بـاردًا لا مرئيـا ولا صوت له، فعالاً، وغامض التأثير، سمّرني فـي مكاني، وجمدني على الهيئة التي كنت فيهـا، رافعا سماعة الإنتركم قـرب أذني اليمنى، ودون أن أسمع صوتًـا للجرس، أو قرعًا على الباب، وجدتني أتحرك كالمسرنم، أضع السماعة في مكانها، وأفتح للقادم.

***

لبرهة فزعت، إذ لم يكن خارج باب الشقة غير عتمة الردهة، وبصيص من ضوء المصعد في الطرف البعيد، وهو ما يؤكد صعود القادم الذي لم أتبينه على الفور، فأين ذهب؟ فكرت في أنه يمازحني، فتنحى جانبًا على الدرج المجاور للباب، حتى أتحير قليلاً، امتلأت غيظًا من احتمال هذه المزحة، وللمرّة الثانية اختفت اندفاعات استنكاري الهجومية، ووجدتني أنبس بوداعة متهادية من أفق بعيد، وأنا في تلك اللحظة التائهة:

– تفضّل.. تفضّل.

وبدلا من أن يأتي القادم من الركن القريب من الدرج، وجدته يبرز أمامي.. كأنه انبثق من العتمة، أو أن أحدًا ضغط مفتاح نور السلم في هذه اللحظة فتبينته، لكنني تذكرت أن نور السلم كان معطلاً منذ فترة، فقد ماطل بعض السكان في دفع مشاركاتهم لشراء جهاز جديد له، ولم يتم إصلاح القديم.

***

ثمة شيء غير عادي كنت أستشعره في الزائر الغريب، وكأن طيفًا من ضوء أزرق شديد الخفوت يمس بشرته الفاتحة مسا خفيفا؛ مما جعلني أبحث عن أي مصدر يشع بهذا الضوء، أو يعكسه، من محتويات غرفة الجلوس التي دعوته إليها، لم يكن هناك أي مصدر يشع بهذه الزرقة، بل كان اللون الأزرق، تحديدًا، غائبًا عن كل محتويات المكان. قطعًا لم يحدث أن رأيت هذا الرجل قبل حلوله على بيتي، قطعًا لم يتصادف أن مررت به في أي مكان، وترك ولو أصغر انطباع في ذاكرتي، كان شخصًا غريبًا أراه لأول مرة في حياتي، ومع ذلك بدا وكأنه يعرفني جيدًا، ويعرف بيتي أيضًا، إذ كان يتصرف بتلقائية، ويجلس في استقرار ودون تطلّع، كمن يألف المكان ويألف صاحبه. كنت أنا المتململ والمرتبك والتائه، وعندما لاحت على وجهه علامات غمّ، وإن عابرة، تصورت أنني ربما أمسك به في مكان متوارٍ

مـن ذاكرتـي، لكنـه نسـف هـذا الاحتمال عندمـا بادرني بحسم هـادئ يشبه الأمر:

– «أنت مطلوب».

ظننـت أن الأمـر قد استبـان، وأنه جـاء يستدعيني لإحدى الجهـات الأمنية، وشعـرت ببعض الطمأنينة لهذا الخاطر، إذ إنـه بخّر سُحب الغموض التي جعلت خيالـي يمعن في الهواجس التي وصلت إلى حد أن أراه، رأي العين، يلتف بلمسة مـن ضـوء أزرق لا وجـود له، لـم أكن خائفًـا مـن أي استدعاء لأي جهـة؛ لأن اتجاهـي الذي بات معروفًـا للكافة في السنوات الأخيرة، وهـو عدم الاهتمام – شبه المطلق – بعالم البشر، والاستغراق في الاهتمام بعالم الحيوان.. هذا الاتجاه لم يكن ليزعج أحدًا، وجعلني التفكير على هذا النحو أسترخي في مواجهة الزائر. وكـدت أشرع في مناوشته بتساؤل مـازح، يستكشف الجهة التي جاء يستدعيني إليها، لكنه صعقني بقول مباغت، كأنه يقرأ ما أفكر فيه:

– «اهتمامك بسلوك الحيوان هو الذي يجعلك مطلوبًا».

عاد الضـوء الأزرق شديد الخفـوت يلمس جبهة الرجـل، وتبينت فيه ملامح الجـذور المتوسطية: الجبين العريض، والجلد المستقر، والعيون التي يختلط فيها الأزرق بالأخضـر بالبنـي، والشعـر الأجعد على الرغم من نعومتـه ولونه الفاتح. ملامـح تدعـو للألفة، كما لـو كان الرجل سكندري الأصل، لكـن هذه الملامح كانـت محاطة بإطار خفي من السطوة والقطع، ولم أكـد أفكر في مجادلته بأنني لسـت بعالِم، بل مجرد باحث هاو، تثير فضوله سلوكيات الحيوان، حتى صعقني من جديد:

– «تفسيـرك لمغـزى وجـود الأفيـال الإفريقيـة، وتتبعـك لتراجيديـا دببة الهيمالايـا، ودحض ما هو شائع عن سلوك النعـام، هذه وغيرها تؤكد على طلبك الآن».

***

نهضت مذهولاً أمامه وقد استسلمت تمامًا لأن أتبعه إلى حيث يريد، فعمليَّ عن الأفيال الإفريقية ودببة الهيمالايا منشوران، ويمكن لأي إنسان أن يستشهد بهما، أما مسألة سلوك النعام فهي مدهشة تمامًا ؛ لأنني كنت بادئا بالكاد في كتابة أول سطورها التي لا تفصح عن شيء، ولم أتحدث إلى أي أحد عن خطوطها العامة، والتي تتضمن فكرة «دحض الشائع» هذه.

***

نهض قبل أن أعود للجلوس أمامه، واستدار ماشيا في الصالة باتجاه باب الشقة، فسرت وراءه، ولما كان وجهه وعيناه اللامعتان ليست في مواجهتي، فإنني استفقت إلى خاطر مقلق، فثمة احتمال لتعرُّضي لخدعة ما، ومن الضروري أن أتسلح بأي شيء أدافع به عن نفسي، إذا ما واجهت عدوانًا، فكرت أن ألتقط سكينًا من المطبخ، بسرعة، دون أن يراني، وأخبئه تحت ملابسي، لكنني خفت من تصعيد ارتيابه إلى هذا الحد بحركة واحدة تستلفت انتباهه، ولا أستطيع تبريرها، ثم إنني لا أتصور أن أطعن أحدًا بأي شيء، حتى لو كان ذلك في معرض الدفاع عن النفس، ووجدت البديل الذي يمكن تبريره في طريقي، واحدة من تلك العصي التي أحب اقتناءها من أماكن مختلفة من العالم، وأعلقها هنا وهناك على حوائط بيتي. كانت تلك «البورمية» المصنوعة من خشب «الساج» المتماسك الصلب، المصقولة، والمجفّتة بزخارف آسيوية غائرة من النحاس تزيدها ثقلاً وصلابة.. كانت كأنها تهتف بي: «التقطني». التقطتها بقفزة صغيرة سريعة، وإذ بمن أتبعه يلتفت إليّ بنظرة خاطفة لا تعبير فيها، ثم يردد وهو يواصل سيره ويقودني للخروج:

– «جيدة.. ستنفعك.. ربما تنفعك»

***

ابتعدنا عن البيت وأنا أتبعه، وإن بدوت ماشيا إلى جواره، تصورت أن معه سيارة أوقفها غير بعيد، لكن هذا التصور تلاشى بعد أن سرنا مسافة، وانعطفَ هو وأنا وراءه في شارع «السلولي» باتجاه شارع مراد، كنت بثياب البيت، وأنتعل «شبشبًا» وشعري على الأغلب مهوش كشخص مستيقظ لتوّه من النوم، ومع ذلك لم يخالجني أي شعور بالخجل، وأنا أسير في الشارع على هذا النحو. لم أكن خجِلاً، بل ممتلئًا بالوجل، وهو يقودني بخطى ثابتة إلى غاية لا أعلمها. جعلني اختياره لشارع السلولي باتجاه شارع مراد، أتوقع أن يوقف سيارة تاكسي تتوجه إلى ميدان الجيزة، أو تأخذ الطريق عبر النفق لتصعد كوبري عباس إلى الجانب الآخر من القاهرة، لكن خطواته لم يتغير إيقاعها عندما وصلنا إلى شارع مراد، الذي لا ينقطع سيل السيارات فيه.. راح يقطع الشارع المجنون بهدوء بارد وأنا أتبعه، مذعورًا في البداية، ثم مدهوشًا غاية الدهشة بعد خطوتين أو ثلاث.. توقف سيل السيارات تمامًا كأنما بإشارة مرور خفية، وانفتح أمامنا طريق آمن إلى رصيف الضفة الأخرى من الشارع، كانت السيارات تتراكم متوقفة دون أن يصدر عنها أي صوت، ولما عادت إلى الحركة وراء ظهرينا لم يكن يصدر عنها أي صوت أيضًا، ثم كان السكون أمرًا منطقيا ونحن ندلف شارع «كافور» الهادئ، والذي لا تزال تحرس هدوءه قوات الحراسات الخاصة، التي لم تترك أماكنها، وإن قلّ عدد أفرادها، حول بيت الرجل الذي لم يغير اغتياله من جثوم قوات الحراسات الخاصة حول أسواره، فلا تزال زوجته هناك.. الذي تغير هو إتاحة المزيد من إمكانية التحديق إلى البيت، الذي أزال الموت التراجيدي لصاحبه، تلك السطوة التي كانت تشع من أسواره البيضاء العالية، وهامات النخيل الملكي في حديقته، وستائر الدانتيلا البيضاء الموحية وراء زجاج النوافذ، غزارة الزهور في الشرفات المزخرفة كانت كما هي، وكذلك البرج الأنيق الأشهب في قمة البيت. غياب مدو في صمت ثقيل، واستوحاش قاتم على الرغم من إشراق البيت الأبيض سُكَّري البياض، يسطع فيما تبقي من ضوء النهار ونحن نمرّ به! تخيلت تلك السيدة التي بقيت وحدها في هذه المساحة الشاسعة

مـن الوحشـة، وزوال السلطان، وذبول العمر، كانت سيـدة بيضاء جميلة، وكان جمالها يضاعف مـن نفوذها الواسع.. لمحت ظلاً يتحرك خلف إحدى الستائر، فتعلق بصري بالظل وصرت أمشي بظهري، لكنني أفقت على من أتبعه يتعجلني، كان قـد اجتاز بي شارع النيل، وقادني على رصيف الكورنيش نحو مدخل نادي اليخـت، راح يهبط الـدرج الحجري وأنـا ألحق به، انعطف يسـارًا وصعد على الجسـر الخشبـي الصغير المعلّـق إلى شرفة المطعـم العائم، ولم يكـن هناك من يستوقفـه.. بـدا المكان وكأنـه أُخلي من العاملين بـه ومن أعضائـه، الذين يكثر توافدهـم عليه في مثل هذه الساعة، ومن نهايـة الشرفة هبط، وهبطت وراءه على مرسـى متحرك نحو أحد الزوارق متوسطة الحجـم والهيئة، والذي كانت أنواره مضـاءة، تحرك الزورق شاقاً طريقه بنعومة بين الزوارق واليخوت المتكـاثرة على صفحة النيل في هذه البقعة حول مطعم النادي، ولولا ذلك الارتعاش الخفيف في انطلاقـه لما بدا أن محركه يعمل، فقد انطلـق دون ضوضاء، بل دون صوت، إلى عرضـ النيل الواسـع، فيما جلستُ على مقعد في صالـون متهالك صغير بجوف الزورق، دون أن أنبس بكلمة.

***

كانـت المياه الخافقة والمتماوجة بفعل حركة الـزورق المنطلق، تبيـن قريبـة مـن زجاج قمرتي الصالـون الصغير، وكانت القاهرة تشرئـب فـوق المـاء زحامًا من العمائر، والأبراج السكنية، والفنادق الشاهقـة، والجسـور.. لم أكـن أستطيـع رؤيـة ضفـة النيـل الشرقيـة التـي نتجـه إليهـا، وكان كل ما أراه يقـع في الضفـة الغربيـة التـي نغادرها، هـل كان تصميم قمرات الزورق هـو المسئول عن ذلك؟ أردت أن أسـأل الرجل الذي قادنـي إلى المكان، ولم يكن موجودًا، وتذكرت أنه غادر الصالـون لأمر ما يتطلب وجوده على السطح، لكنـه غـاب، وطـال غيابـه، أو هكـذا شعـرت، إذ بدأت ألاحـظ هبـوط ذلك الشريـط البرتقالـي المتوهـج، الـذي تعكسـه شمس الغروب علـى المـاء، ثم أخـذ الشريـط يتكسّـر وينطفـئ

رويـدًا رويـدًا حتى تلاشي فجـأة، واكتشفـت حلـول الليـل على ميـاه النهر. تلامعـت الأمواج السوداء عاكسة ضـوء مصابيح بعيدة، أو نجوم، ثم أخذت التماعـات الماء تتأجـج بشكل متسارع، حتـى خلت أنها تعكس صورة آلاف المشاعل علـى الشاطئ الذي هجست باقترابه، أحسسـت بالخوف ثم الرعب، وكان قلبـي ينتفـض فـي صـدري، وحلقـي يحتـرق من جفـاف مباغـت إذ هُيـئ لـي أن الزورق يشق طريقه وسط نهر من نار، نهضت مرتعبًا، وما كدت أنادي علـى الرجـل الذي جلبني حتى فوجئـت به قبـل أن يخـرج صوتي، يقـف بأعلى الـدرج الداخلـي الذي يصعد مـن الصالـون في جوف الـزورق إلـى السطح، يناديني:

– «وصلنا.. اطلع».

تسانـدت على عصاي تساندًا حقيقيا؛ إذ كنت أعاني إعياءً شديدًا لم يسفر عن نفسـه، إلا بعد أن هممت بالحركة، الإعياء نفسه المشوب بالدوار، والذي يمكن أن يداهـم الإنسـان بعد طيـران طويل يعبر فيـه محيطا أو قارة كاملـة، لكن هذا الإعيـاء تنحّى أمام صورة الماء المشتعل، أو الـذي يعكس لهيب الاشتعال، وأراه عبـر قمرتي الصالـون الصغير.. رحت أشـد بيميني خشـب الدرابزين المصقول للسلـم الصغيـر شدًا، بينمـا كنت أطعن بطرف عصاي ـ فـي يساري ـ درج السلم طعنًـا يدعم ارتقائي، صعدت الدرجـات القليلة بقدميَّ ويـديَّ، فعلاً، وبدا ذلك كأنـه استغرق مني وقتًا يكفي لصعود سلالم برج سامـق، ثم توقفت بأعلى السلم ألهـث، روَّعني انعكاس الوهج الأرجواني الـذي كان يخفق على وجه صـاحبي، ويخفـق علـى يدي، وعلـى أعمـدة وسقـف برجولـة السطـح، فتطلعـت عبر المساحـات الواسعـة المفتوحة لأرى مـا لم أستطع تصديقـه: ضفة نهر من تلال متماوجـة تشـب فيها النيـران بضـراوة، وتضيئهـا جميعًا برعب حريـق شامل. صرخت مروّعًا:

– «لا.. لا.. هذه ليست القاهرة».

استـدرت بعافية دبت في جسـدي فجأة، وأمسكت عنيفًـا بصاحبي أهزه من كتفيه وأنا أصرخ في وجهه:

– «أين أنا؟ .. أين نحن؟»

ولدهشتـي شعرت بالرجل خفيفاً وهشاً كما لـو كان دمية خاوية، وقرأت في وجهـه الذي تتلاعب عليه أضواء النيران أعمق أسـف، وأسي، يمكن أن ينضح به وجه كائن بشري، ثم إن لحيته كانت قد ابيضت، وطالت، واشتعل رأسه بالشيب كأنـه شـاخ في لحظات.. لم يتكلـم، ولم أتكلم، ولـم أرد أن أسأله مزيدًا ؛ لأنني وجـدت اليقين يطفـو صاعدًا في رأسي كما لو أن برنامجًـا أخذ يشتغل في عقلي ويعرضـ على ذهني معطياته: «هـذه لا يمكن أن تكـون إلاّ روما وهي تحترق؛ فهـذا نهر التيبـر يشق أرضها المتماوجـة ذاهبا إلى البحر، وهـذا هـو «البالاتين» أكبـر تلالها السبعة تعتليه البلدة القديمة، وهـا هي ذي النيران تلتهم الحي الشعبي فـي السفح، وتنتشر هابطة فـي كل السفوح، ثم تصعد متشهيـة كل الذُرى، إنها روما تحترق، حريقها الكبير، والعام هـو الرابع والستون الميلادي، فأين نيرون؟ خطـر لـي السـؤال، وإذا بي أُحلِّق فـي سمـاء المدينـة التي اختلـط سـواد ليلها بسـواد دخان حرائقها، وإضاءات ألسنة اللهـب، أنتقِلُ طافيا باتجاه قمة من قمم رومـا كأنني في «كبسولة» لا مرئية، أو أنني أغوص في عمق مشهد من المشاهد ثلاثية الأبعـاد، وتتعلق «كبسولتي» الخفية إلى جوار شرفة يطل منها ملتاث شائه، وإن كان يرتدي زي الإمبراطور، بطنه كبير، وأرجله قصيرة عجراء، ورأسه مفرط الثقـل، يشيـر إلى المدينة التي تحتـرق تحته متهللاً عظيم الانتشـاء، يتابع بسبابته اليمنـي المنتفخـة شيئًـا أو أشيـاء متحركـة، ثم يضحـك في جنون، ويـردد عبر ضحكه:

– «مشهد.. ياله من مشهد! مشهد رائع».

عـاد يكرر الإشـارة والتتبع دون أن يتوقـف ضحكه، فنظرت مليـا إلى حيث يشير، وتتبعت ما يتتبعه، فاكتشفت مشاعل متوقدة تمرق مثل شهب غليظة عصية

علـى التلاشـي، تأخذ من النيران هنـا وتُشعل بها حريقًا هنـاك، تدخل في النيران وتخـرج منها أكثر توهجًا وسرعة، تعبر نيرانـاً جديدة، لتشعل نيرانًا جديدة، فمن هم مشعلو الحرائق هؤلاء الذين يتفجّر لإجرامهم ضحك نيرون؟

– «هذا ما أتيت أنت لرصده».

سمعـت صـوت مرافقي يـرد على السؤال الـذي خامرنـي دون أن أتفـوه به، وكان يأتـي عـن يمينـي، فالتفتُّ لكنني لـم أره، لم تكن هنـاك مساحة لمزيد من الرعـب والدهشة، فلـم أتوقف طويـلاً أمام غيـاب الصورة، وسمـاع الصوت، ووجـدت نفسي أمعن فـي المشاعل المارقة، والمتقاطعة فـي حريق روما الكبير المرعـب، وكنـت وأنا أمعـن أقترب وأقترب، حتـى رأيت ما رأيـت، فصرخت مدهوشًا:

– «إنها حُمُرٌ مشتعلة!»

كانـت تُعدُّ بالمئـات، وهي فـي رعبهـا تجري عمياء مروَّعـة، فتدخـل في نيران جديدة تؤججهـا أكثر، تعميها وتروعها أكثر، فتسرع أكثر، وتوسِّع الحريق أكثر.

اقتربـت مزيـدًا فاكتشفت أن هـذه الحُمُـر جميعًا مـن الإنـاث، أُتـن ممتلئة الضروع، بل ممتلئة إلى حد الاحتقان، وحليبهـا المحبوس يشخب وهي تركض، فيطفـئ مسارات دقيقـة يتصاعد منها بخـار ملامسة الحليب للنـار، وسرعان ما يتلاشـى البخار وتلتئـم مسارات الانطفاء، يَؤُجُّ فيها اللهـب من جديد، بل يصير أكثر اضطراما، بينما المشاعل الحية تتنقل، وروما تزداد احتراقا، من أين أتت كل هذه الأتن؟

برق في ذهني السؤال، وإذا بالإجابة تأتي عن يميني:

– «أصلهـا كان لأجريينـا.. أمه.. ومعظمهـا لسابينا محظيتـه.. والبقية لنساء ومحظيات رجال الحاشية».

كان لاجتماع اسمي أم نيرون «أجريينا» ومحظيته «سابينا بوبيا» تأثير انفجار مضيء في ذهني، وراحت الذاكرة تعمل كأنها تستقبل بثًّا من أعماق سحيقة، فأرى رَكب «سابينا بوبيا» الإمبراطوري، وهي تتنقل بين المدن التي يحكمها من حظيت بولعه، وفي وسط الركب يتحرك قطيع من خمسمائة أتان لم تكن لتفارق ركبها أبدا.. كانت سابينا تستحم يوميا، عند الضحى، بجِرار من حليب هذه الأتن الطازج الدفيء، كان حليب هذه الأتن هو إكسير جلدها المُغوي، يجدّد حيويته وفتنته، ويمنحه طراوة ونعومة تخلبان لُبّ نيرون، فتحدث المقايضة: تستحوذ المرأة النرجسية على بعض من نفوذ الاستبداد الذكوري، ويتسلل إلى

الرجـل النرجسي بعض من أهواء الأنثى التي تحركهـا الغريزة، ويمعن كل طرف فـي تمويه هذا التبـادل، فتزيد المرأة من نعومـة جلدها، ويزيد الرجل من خشونة بطشـه.. أليس هذا بعض ما يفسـر سعار وحشية نيرون، بعد ارتباطه بسابينا بوبيا، التـي جعلته ينتزعها عنوة من زوجهـا الذي كان صديقًا لـه؟.. بعدها قتل زوجته «أوكتافيـا»، ومعلمه «سنيكا»، ونحر آلافاً من البشـر قبل أن ينحر بسيفه «سابينا بوبيا» نفسها!

– «وأمه؟»

جـاء الصوت، عن يميني أيضًا، فلم ألتفت؛ إذ وجدت المشهد الفظيع يتجسّد لي: «أجريبينا» الأم وقـد ركلها نيرون، ورفع سيفه عليها؛ فانطرحت تحت قدميه تصرخ فيه بلوعة مسعورة:

– «هيا.. ابقر هذه البطن التي حملت الوحش».

ولـم يتأخر عن تلبية صرختهـا، فهوي عليها بسيفه، وظـل يهوي في جنون، يُقطّعهـا ويبعثر دمها، ويقفـز مبتعدًا كلمّا ندّت عن الجسـد المُقطّع أدنى حركة، كأنهـا حية عملاقة لا يأمـن شرّ لدغتها وهي تحتضر، حية لم يرتو عطشها للتسلط الـذي لـم تكف عـن السعي إليـه لعبًـا بالذكـور.. خانت أبـاه القنصـل لتقترن بالإمبراطـور، ولعبت برأس الإمبراطور؛ ليـرث ابنها الصغير السلطة، وعندما كبر ابنهـا بعد أن صـار إمبراطورًا وأراد أن يوقف تسلطها، تآمـرت عليه ليزيحه الابن الشرعي للإمبراطور الذي أزاحته من قبل.

ذهبـت «أجريبينا» وجـاءت «سابينا»، فورثت عنها ما تركتـه من أُتن، وزادتها عددًا حتى بلغت خمسمائـة، وتبعتها كل المحظيات، صارت سياسة الأُتن حرفة رائجـة في روما نيرون، وانتشرت حظائرها في الحي الشعبي حيث يُقيم سُياسها، ويشب الحريق فتشتعل الأُتن، ويدفع رعب النار بمزيد من الحليب في ضروعها، تحتقـن الضروع مضيفـة إلى آلام النـار ألما جديـدًا، وتهيج الأُتن المشتعلة هاربة مـن النـار إلى النار، تتحـول أجسادها إلـى مشاعل تشعل غيرهـا، فيستعر حريق روما.

– «ياله من مشهد رائع!».

لـم أعد أسمـع صوت المجنون، لكـن قهقهة هتافه كانـت تترجّع في داخلي بأصـداء رنّانة، وأدركـت أن افتتانه كان منصباً على نقـاط المشاعـل المتوهجـة، التي ترسم في حراكها خطوطًـا أرجوانية، تتصادم وتتقاطع وتتوازى، على خلفية ألسنـة النار البرتقالية، ورمادية الدخان، وأطلال البيوت التي تفحمت، كان يعتقد أنـه شاعر مجيد، وكانت آخر كلماته وهو ينتحر، بعد ذلك بسنوات، طاعنا نفسه بسيفه:

– «ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي»!

هـل كان محتملاً، لو لم تدفعه أمـه إلى الحكم، أن يتحقق في شـاعر، أو فنان، أو حتـى مجـرد إنسـان مرهف؟ وهـل كان إفلاتـه من فـخّ أمه يقيه مـن مصيدة محظيته؟

– «لقد رأيت ووعيت.. فماذا تقول؟»

سمعـت صـوت مرافقي من جديد، وظننت أنني لو التفـتّ إليه فلن أراه، لكنه كان هنـاك، عن يميني، وكنت أرى روما المشتعلة تبتعد رويدا رويدًا؛ أدركت أننا عدنـا إلى عرض النهر، ولم يكـن لديَّ ما يمكنني الإجابة بـه، فلم أنطق، مكثت على صمتي بعد أن عدت إلى الصالون الصغير في جوف الزورق، رأيت انعكاس أضـواء النيران يخفت، ويذوب في ظلمة الميـاه والليل، فأدركت أن مياه «التيبر» تمضي، بينمـا مياه النيل تجيء، تتلامع على ظلمة مويجاتهـا أضواء تلك النافورة التـي تتوسط النهـر، وأضواء الأبـراج السكنيـة، والفنادق، والمطاعـم العائمة، والجسور، التفت قائلا لمرافقي بتأثر:

– «القاهرة.. ».

– «وأنت تعرف الطريق».

كـان ذلك رده قبل أن يصعد إلى سطح الزورق، وكنت أحس أنني ثانية لن أراه. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

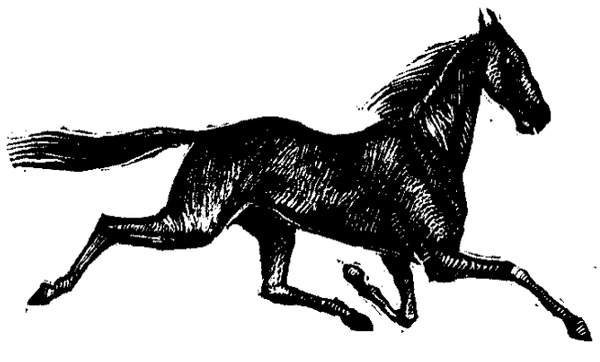

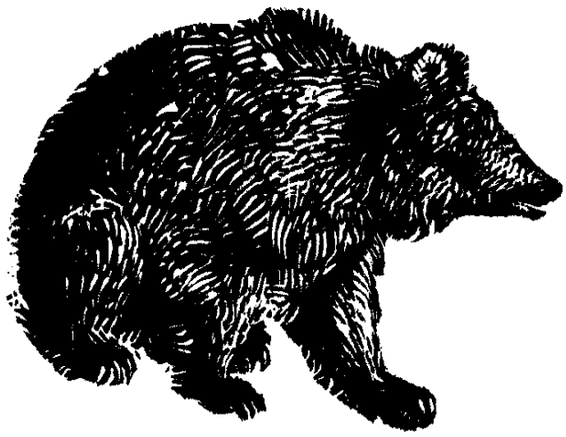

● وتشهد الظواهر أن الدببة تستمتع بالغروب، وتستمد لذة من التجربة الجمالية، ويضحك العلماء من سذاجة التفسير، إذ كيف يكون الدب قادرا على التذوق الجمالي، والحالة التأملية، في حين يعتقد بعض علماء الجمال أن بعض البشر عاجزون عن ذلك؟!

● ومما لا شك فيه أن المرء يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك، بأن يصغي ـ على سبيل المثال ـ إلى دب يرسل زفيرا ويزعم أنه يتنهد من الحزن العميق والوعي بزوال الأشياء، مراقبا عالمه ومفكرا أنه لن يعيش حتى يشاهد جمالا كهذا ـ وكأنه شاعر على هيئة دب. (**جيفري ماوسايف، وسوزان ماكارثي ـ الحياة الوجدانية عند الحيوانات**)

دببة بيضاء / دببة سوداء

كانت القرية واطئة تحت الطريق، ولفتت نظري في ساحتها تلك الدببة السوداء المربوطة في الأشجار، بجوار الأكواخ الطينية المسقوفة بالقش، والتي تمثل نمط البيوت في هذه القرية التي بدت مهجورة، إلا من امرأة شاردة، وقفت تتابعنا بنظرها بعد أن أوقفنا سيارتنا وترجلنا لنهبط، وماكدنا نستقر على أرض القرية، حتى بدأت الأكواخ تلفظ ساكنيها في اتجاهنا، وظلت المرأة واقفة في مكانها خارج حلقة عشرات الدببة الواقفة تهتز، ومرقصيها الضاربين على الدفوف، والأطفال أشباه العراة، والماعز، والكلاب.. تلك الحلقة التي أحاطت بنا كسوار كثيف من الحيوانات والبشر.

«فيفتي روبيا مستر.. تـن روبيا مستر.. تن روبيا.. تن روبيا». كانت عشرات الأيـادي النحيفـة الضئيلة تمتـد إلينا، وعشـرات العيون السـود والبنيـة الطحينية تتطلـع إلينـا بإلحاح وضراعة، أيـادي وعيـون الصغار والكبار علـى السـواء، تطلـب عطيـة من «السيـاح» الذين هبطـوا إلى القريـة بأقدامهـم، بينما تعوّد سكانهـا أن يذهبـوا، هم ودببهـم، إلى «السيـاح»، وحتى أبعـد نقطة من حدود راجستان.

مشهـد عجيب مـن الدببة السـوداء المنتصبة على أقدامها، وقـد شرع بعضها يرقص ذلك الرقص الثقيل المؤسي، وعشرات المرقِّصين الذين يمسكون بأطراف الحبـال المربوطـة في رقـاب الدببة، بينما تلـك الدفوف الكبيـرة تهتز لضربات أصابع المُرقِّصين عليها، صخب إيقاع الدفوف، والأصوات السائلة شيئًا، وهرس عشـرات الأقدام العاريـة لأوراق الكينا اليابسة المخشخشـة على الأرض، حلقة من ضوضاء وصخب، لم يكن بينها قط أي صوت يندُّ عن الدببة الصاغرة، وتلك المـرأة الشاردة الضامرة، التـي انتبذت ركنا بعيدا، تطل علينـا وعلى الحلقة التي أحاطت بنـا بامتعاض يائس، وكانت تتفل باتجاهنا واتجـاه الحلقة، وتهمهم بلا صوت، أو بصوت لم يكن في مقدوري أن أتبينه إلا بالاقتراب منها، ولما شققت الحلقة متجهًـا نحوها، تحولت الحلقة إلى شكل كمثـري، كانت هي في طرفه، بينمـا تصطخب من حولـي الأصوات: «دعك منهـا مستر.. دعـك منها.. إنها مجنونة مستر.. مجنونة.. مجنونة الدببة ».

«مجنونـة الدببـة» ـ لسعت التسمية خاطري بشكل بـارق، فأمعنت في إزاحة الدببـة ومرقصيها والزحـام من حولي، حتى صرت أمام المـرأة مباشرة. تبدو في نحـو الثلاثين، وقد خـرّب الجنون والبؤس ملاحة ملامحهـا، التي يبدو مما بقى مـن أطلالها أنها كانت باهرة الحسن، وعندمـا اقتربت منها لم تجفل، ولم تكف عـن همهمتهـا ولا تعابيـر امتعاضهـا، لكننـي وقـد بذلت جهـدًا فـي إسكات المتجمهريـن مـن حولي، صرخـت بأقصى ما لـدي من غضب ملوحـاً صائحاً

بالإنجليزية: «سكوت .. سكوت .. أغلقوا أفواهكم »، وبالكلمة الهندية الوحيدة التي أعرفها: «بَسْ. بَسْ. بَسْ »، فكأنني سلطت شعاعًا سحريا على الوجوه، التي كنت أحدجها ببصري بينما أصرخ، فتجمد الوجوه مغلقة أفواهها،ولاحت برهة نادرة من الصمت تيقنت خلالها أن المرأة كانت تهمهم حقّا، لكن بلا صوت. تهذي بكلمات داخلية غامضة، رجّحتُ أن فيها شتيمة ولعنًا مغلولاً للناس الذين تراهم، وربما للحياة بأسرها، وبينما بدا للجمع أن محاولتي معها باءت بالفشل، عاد الصخب إلى سابق عهده، وإن بدأ متدرجًا قبل أن يصل إلى الذروة التي يستحيل فيها تمييز أي صوت منفرد، لكنني ظفرت بصوت يلقي ببداية ما: «إنها تعاشر الدببة بالليل.. مالك منها أيها السيد.. إنها مجنونة ». طفت بالوجوه اليابسة المتشابهة قرب وجهي، أحاول استخلاص من يكون صاحب الكلمات التي لفتت انتباهي، لكن معزوفة الصخب كانت تطمس كل إمكانية للفوز بأي شيء عبر هذه المحاولة، وبشكل غير مخطط رحت أكرر فيما يشبه الزعيق: «إنها مجنونة.. تعاشر الدببة بالليل.. تعاشر الدببة بالليل!» وعثرت على وجه رجل يومئ لي مصدقًا على تلك الكلمات، فجذبت الرجل من رسغه، حتى أدنيت أذنه من فمي، ورحت أحدثه زاعقًا بالأسئلة: «المرأة تخالط الدببة بالليل؟» فأومأ مجيبا، «أنت تعرف حكايتها؟»، فكرّر الإيماء بالإيجاب، عندئذ ملت على أذنه هامسا بزعيق مكبوح، طالبا منه أن يذهب إلى سيارتنا الواقفة على الطريق وينتظرنا.

***

«أقسم.. أنها تعاشر الدببة بالليل.. ويمكنك أن تتأكد من ذلك بنفسك.. سأقودك لتري ذلك.. ولن آخذ منك غير مائة روبية.. الدببة تكون خطرة في الليل ولابد لك من مرافق عارف بأمرها.. سأكون مرافقك.. ولن آخذ منك أكثر من مائة روبية.. بل خمسة وسبعين روبية فقط.. وسوف تراها وهي تعاشر الدببة».

مُرقِّص الدببة الـذي اصطفيته، واستبقني إلى السيارة، بصحبة دبه، قدم عرضه الـذي جاء أزيد مما كنـت أنتظره، وتنازل في مساومته حتـى وصل بها إلى عشر روبيـات! لـم أكن من جانبي أساومه، بل كنت لا أصدقـه، وأحاول تنحية الفكرة المدهشـة التي طرحهـا، وتلك المغامـرة الموعودة تحت جنح الظـلام في قرية مرقصـي الدببـة.. لم أكن أريد منه غير الحكاية التـي يمكن أن تكون بحوزته عن امـرأة مجنونة يشاع أنها تعاشر الدببة في الليـل، لكنه بكثافة الإلحاح والإلحاف دفـع نحوي لُقيا لم أكن أتوقعها، وكنت أعرف أن فضولي لن يقاوم عرضه الزهيد المثيـر؛ خصوصًـا وأنه لـم يكن يمسك مـن حكاية المـرأة إلاّ بأطـراف خيوط محروقـة توحـي بشيء لكنها لا تكمله، ومـن ثم كان عرضه بـأن أذهب معه في الليـل إلى القريـة الكائنة في سفح الطريق، حيث أكـواخ القش، وعشـرات الدببة المربوطـة إلى جذوع الأشجار، ثم خروج المـرأة إلى ساحة جنونها المزعوم في الظـلام، كل هـذا كان يشـكل تجربة تصعب مقاومـة إغرائها، وعلـى الرغم من تحذيـرات مرافقـي الهندي «بيرام» مـن التبعات المحتملة لتلـك المغامرة، كأن يفتـك بي دب من الدببة، أو تفضـح المجنونة وجودي فيستيقظ أهل القرية حيث يكـون تزاحمهم في الظلام مختلفا عنـه في النور، يصيـرون هجوميين وشرسين كوحوش في الليل.. لم أرتدع، بل صرت مشدودًا بخيط سحري لا يُقاوَم لخوض معاينـة استثنائية، ثم إن الدببـة لم تكن تخيفني، فهي مربوطـة ومنتزعة المخالب والأنيـاب كما رأيتها بين أيـادي مرقصيها أو في ظلال الأشجـار التي رُبطت إلى جذوعها.

اتفقـت مع الرجـل أن نلتقي عند منتصـف الليل، دون أن يكـون معه دبه، في «فاتيهبـور سيكـري»، أسفـل الدرج الهائـل المؤدي إلـى بوابة مدينـة الأشباح الشاهقة؛ فقد كنا متجهين من جايبور إلى أجرا، مقفلين في الطريق التي مررنا بها مـن قبـل، ولم أكـن أعرف مكانـا قريبًا مـن قرية مرقصـي الدببة غيـر «فاتيهبور سيكـري» التـي تيقنـت أن الرجل يستطيع بلوغهـا خلال عشر دقائـق سيرًا على الأقـدام، فـي حين نكون وصلنـا إليها من أجرا، ومـن ثم ننطلق إلـى القرية معا،

نوقف سيارتنا على الطريق، ونتدلى إلى السفح الغارق في الظلام، نترقب ظهور مجنونة الدببة، وعرضها المنتظر، ذلك العرض الاستثنائي، بعشر روبيات، فقط!

فـي النهار مررنا بفاتيهبور سيكري، وفي الليل عدنا لنمر بها، في المرة الأولى نزلنـا وعاودنا التطـواف بأطلالها المترامية المهجورة، لعلهـا أكبر وأغرب مدينة أشبـاح في العالم، في الليـل تبدو وكأنها تبرز بكامـل شبحيتها في الظلام، وعلى الرغـم من انشغالـي بالحكاية المحتملة لمجنونـة الدببة، فإن حكايـة «فاتيهبور سيكـري» ظلت ناشبـة مخالبها في خاطري، مدينة هائلة مـن مدن المغول الذين حكمـوا الهند لثلاثة قرون بعد قدومهم المجتاح مـن آسيا الوسطى، مدينة أعدها الإمبراطـور المغولي «أكبر» لتكون مقراً جديداً متفرداً لحكمه، مدينة إمبراطورية كاملة من الأحجار الرملية الحمراء داكنة الحمرة، بقصورها، وأبهائها، وأبراجها، وثكناتهـا، وحوانيتهـا، وسجونهـا، ومقابرهـا، ومسجدها الكبيـر، كل شموخ وبراعـة العمارة المغولية وزخارفها وضعها «أكبر» في هذه المدينة، لكنها لسبب غامضـ باتت مهجـورة، قيل إن ذلك بسبب ارتفاعها وعـدم امتلاء قنواتها بالماء بشـكل مستمر، هل كان «أكبر» يظـن أن الماء سيكسر قانون الجاذبية نزولا على أمـره الإمبراطوري، ويصعد إلى ذُرى مدينته القابعـة فوق الذُرى؟ لم يصعد الماء وصـارت قلعة «أكبر» مدينة أشباح، تصفر بين أبراجها الريح، وتسرح فيها القردة التـي كان الإمبراطور يقتنيهـا، والتي لم تكف عن التناسـل، والتكاثر في المكان حتى يومنا.. أمّا فضاء المدينة فهو مجال مفتوح للتقاطعات التي لا تنتهي، لمروق الخفافيش المعششـة فـي أعالـي أقـواس البوابـات الحجرية الشاهقـة، وفي قـمم الطوابـي، وأركان السقـوف.. حتـى التجمعـات العفويـة لخلايا النحـل البري بتجاويـف الزخارف العالية، بدت لي لطخـات مقبضة، وكأنها أعشاش خفافيش أخـرى خاوية، على الرغم مما يقطفه مواطنو القـرى المحيطة بالقلعة من عسلها البري الثمين.

شـيء ما ظـل يقبض قلبي كلما كنـت في رحاب قلاع المغـول، وقصورهم، ومقابرهـم التي تشبه القلاع والقصور، كل انفساح الحدائق المغولية وأقنية المياه المديدة فيهـا، والنوافير البديعـة، والصخور الصقيلة، والمرمـر المطعم بأحجار ملونـة كريمـة، وشبه كريمة، ترسـم بهجة من الزهـور الفاتنة والزخـارف البهية

والمعجزة.. كل هذا لم يستطع أن يرفع عن قلبي قبضة سوداء غامضة، ظلت تمسك به طالما كنت بين آثار المغول في الهند، حتى أمام ملامح الدعوة إلى التآخي بين الأجناس، والتسامح بين الملل، والمتجلية في مزيج العمارة والنقوش، لم تستطع أن تحل هذه القبضة الغامضة عن قلبي، وظلَّ «أكبر» - الإمبراطور المغولي الأشهر والأكثر دعوة إلى التآخي والتسامح - يشكل طيفًا ثقيلاً، ومقبضًا، على الرغم من أصداء عظمته في آثار الأمكنة وصفحة الزمان، لم أستطع تنقية خاطري من طعم القهر الذي شاب ما سمعته عن حكاية المودّة التي قامت بين حكام راجستان من الهنود، وبين الإمبراطور الذي تركهم يحكمون في العاصمة «جايبور». لم يغْزهم، ولم يقمعهم، فأهدوه إحدى بناتهم زوجة، صارت الأحب إليه بين زوجاته العديدات، ومحظياته اللائي يصعب عدهن.. لم أصدِّق أبدا تلك المودة، أستطيع أن أتخيل بهجة الحواس التي يمكن أن تفيض بها على الأميرة الهندية أنهر العشق والجمال والخيال المغولي، أستطيع أن أتخيل «الفانتازيا» الجسدية التي توحي بها الرسوم الملونة الفاتنة لكتاب العشق المغولي الجميل المثير «كاما سوترا»، لكنني لا أستطيع إلا تخيُّل فجوة الظلمة والقتامة في قلب الأميرة المهداة للإمبراطور؛ إذ تخلو بنفسها في هزيع الليل الأخير، أو يخلو بها ذلك الهزيع الأخير من الليل.

***

وكأن الليل يفضي إلى الليل، ظلت أطياف «فاتيهبور سيكري»، والتي تعني «مدينة الفاتح العظيم»، تتلبس خواطري، تلقي بظلالها الثقيلة على صور من حكاية مجنونة الدببة، والتي توترت تشوقًا إلى معاينة مشهدها الختامي على الطبيعة، وأسعى إلى مسرحها المظلم في خباء الليل.

***

مدهشة طريقة اصطياد الدببة في الهند، وترويضها لتصير خادمة مطيعة بين أيادي، وأوامر، وإيقاعات دفوف مرقصيها، هؤلاء الناحلون الحفاة أشباه العراة.

وطويلة هي الرحلة التي تقطعها الدببة السوداء قادمة من ذُرى هضبة التبت، ومن بين قمم جبال الهيمالايا، مودِّعة بريتها المطلقة، لتذعن مربوطة في الأشجار أمام أكواخ القش التي يسكنها أفقر فقراء الهنود، في تلك القرية القابعة في خسف من الأرض، تحت أقدام الطريق.

***

الدببة تحب النساء! وكنت أحسب أنها تكتفي بحب العسل البري وتجن بالتهام الخصي، وأسماك السالمون، كما عرفت ذلك في أثناء وجودي في روسيا. في الهند اكتشفوا عشقها للصبايا، فحولوا هذا العشق إلى مصيدة، إذ يعمد الصيادون إلى إطلاق امرأة شابة فوارة الحسن في مراتع الدببة، في بقعة يعدُّون بأرضها كمينا مموها ببراعة، وبينما المرأة تمضي في طريق مرسومة، يكمن الصيادون في أعالي الأشجار، متوارين بالأغصان الكثيفة، جاعلين بنادقهم على أهبة الاستعداد لإطلاق النار، بينما أطراف حبال الكمين بين أيادي بعضهم.. يكتم الصيادون أنفاسهم، وتتسارع أنفاس المرأة؛ إذ يظهر واحد من الدببة يتبعها وكأنه مراهق بشري، راغب ومرتبك وذاهل، يتعقبها مبطئًا من سيره، مطأطئًا لا يكاد يرى غيرها أمامه، يفقد حذره كله، ويتعثر في خطواته بينما تحرص هي على ألا تتعثر على الرغم من فرط خوفها، تعبر فوق الكمين على جسر معلوم تدربت على عبوره من قبل، وبينما تجتاز فوهة الكمين يكون الدب في بؤرة السقوط؛ عندئذ تنشدُّ الحبال من أعالي الشجر، فيهوي الدب، وتتنفس المرأة الصعداء.

***

بحبال المصيدة يوثق الدب، ويشد الرجال وثاقه مزيدًا، وللتو يشرعون في نزع أنيابه ومخالبه بـ«كماشات» حديدية، حتى يتلطخ خطمه وصدره بالدم. وفي قرية مرقصي الدببة يبدأ الترويض، بعد أن تلتئم جروح الأنياب المنزوعة والمخالب، يتحول الدب إلى طفل مقهور أو شيخ كسير، لا سبيل لأن يحصل

علـى طعامه بنفسـه، فلابد مـن أحد يناولـه طعامه، وطعامـه كطعـام الصغار أو الطاعنيـن فـي السن: فتيت من الخبز فـي الحليب أو المـاء المُحلّي بالسكر، كل لقمـة بطاعة أمر، وكل عصيـان لأمر يحرمه من لقمـة، والأوامر شتي، يقف على قائمتيـه الخلفيتين منتصبًا كالبشر، يهز رأسه على إيقـاع الدفوف، أو يرقص على هذا الإيقاع بكامل ثقله.

***

يتحـول دب الهيمالايا الفاتـك الأسود، إلى مسخرة، لكنهـا مسخرة موجعة للقلـب عندما يمعن الإنسـان في دقائقها، فخطـم الدب المنـزوع الأسنان يبدو أدرد، رخـوًا كأنه خرقة باليـة، وأكف أقدامه المنتزعـة مخالبها، تلوح كمقشات ضئيلـة شعثة، والجرم العملاق الذي ينتصب واقفا، ثم مهتزاً على الإيقاع الركيك للدفـوف بين أيـدي المرقصين، يوحـي بالتناقض المـذل، أما العينـان، فيا لتلك العينيـن الصغيرتيـن الموشكتين على البـكاء! على الرغم مـن أن المشهد مصمَّم ليبعـث المسرّة في عيون المشاهدين.. شيء قاتل للمسرّة تمامًا لمن يمعن فيه ولو للحظـة، لهذا كنت كثيـرًا ما أرى المشاهدين يدفعـون للمرقِّصين دون أن يتابعوا رقص الدببة، إذ سرعان ما يشيحون عن المنظر وينصرفون، لهذا عجبت من زعم أن المرأة تعاشر الدببة، حتى لو كان ذلك في عماء الظلام.

***

يـوم قادوها من الجنوب البعيد إلى الشمال العالـي لتكون طُعماً لدب، كانت بضّـةً وفاتنة، قوام سارح لدن، وبشرة حنطيـة ناعمة، وعيون واسعة بلون العسل، وعلـى الرغم مـن أنها كانت تحمل وسـم «الارتباط»، زهيـرة منمنمة من الفضة بركـن أنفها، فإنها لم تكن قد تزوجت بعـد، وكان الزوج صاحب الوسم مرقِّص دببـة شابـاً مثلها، لكنـه يابس وناحل وجفـول، وكان ضمن فريـق صيد الدب. عمّـروا بنادقهم وخيموا بعد أن هيأوا الفخ فـي النهار، في بقعة من غابات سيكيم قارسـة البرودة علـى الرغم من أن الوقـت كان ذروة الصيف، دربـوا المرأة على

مخطـط الإيقاع بالدب عدة مرات، ثم أشعلوا نارًا تـذبّ عنهم النمور والذئاب، وتوزعـوا بين نائم وحارس فـي مناوبات حتى يجيء النهار، أمـا هي، فقد أفردوا لهـا مساحة بركن الخيمـة وتركوها تنام، لكنها على الأغلـب لم تنم من الخوف ممـا يأتي به الغد، أم من دبيب النمـل الساخن في جسدها الفائر المحاط بأجساد رجـال من بينهم رجلها، أم من هذا وذاك؟ لا أحد يعرف، لكنها لم تنم ليلتها كما أخبـر الشهود وجمَّعت شهاداتهم الحكاية، ولعلها غفـت قليلاً في آخر الليل، إذ رأى الرجـال وجهها نضرًا فـي الصباح، وكانت همتها عاليـة، ثم بدأت طقوس صيد الدب..

***

صعـد الرجال ببنادقهم أعالـي أشجار، ترسم دائرة واسعـة حول بقعة الصيد، وأوعـزوا للشابة أن تغني بدلال وتتمايل، لا أحد يعرف هل هو صوت غناء الأنثى حقّـا، أم غنجهـا، أم عبق أنوثتها هو الذي نادى دبًّا مـن بعيد ليأتي ويقترب منها، أبصـر الرجال من ذراهم الخفية كتلة السواد القطيفي الفاحم تشق أدغال الخضرة نحـو مصدر التـأود والغناء، وعندمـا دخل الـدب الدائرة ألقـى أحدهم بحصاة صغيـرة خفيفة عند قدمي المرأة، مؤذنًا ببـدء تحركها، أنهت الأغنية، وتحركت، فتحـرك فـي أعقابها الدب، كتمـت الغابة الشاهقـة أنفاسها، فلم تعـد هناك غير أصوات أقدام المرأة تطأ ركام أوراق الشجر على أرض الغابة، وأصوات خطوات الـدب يتعقبها مطأطئا لحظة، ثم رافعًا إليها عينيه الصغيرتين المغشاتين بالرغبة في اللحظـة التالية.. ران علـى الغابة صمت عميق، فتبدت بوضـوح أصوات أنفاس المرأة المتباطئة علـى الرغم من إسراع الرعب في عروقها، وكانت جلية أصوات أنفاس الدب المهتاج، خطوات قليلة قبل بؤرة الصيد، قليلة لا تتجاوز عدة أمتار، لكنهـا بدت للرجال القابعين في الأعالي طويلـة لا تنتهي، وبدت للمرأة كأنها لن تنتهـي أبـدًا، إنها المسافة الخطـرة، بين وقوع الـدب في الفـخ، أو وقوعه على الفريسـة، يرفع الرجال بنادقهم في هـذه اللحظة، ويحكمون التصويب على رأس

الـدب تحسبا للخطـر، وقد وقع الخطر، تعثرت أقدام المـرأة المرعوبة في غصن يابسـ كان مختفيا بين ركام أوراق الشجر المتساقـط على الأرض، تعثرت لأنها حاولـت الالتفـات خلفها من شدة الرعـب، وكانت في الوقت ذاتـه تحاول منع نفسها من الالتفات.

وقعت المرأة الشابة بطولها ممـددة على الأرض، بينما وجهها ملتفت باتجاه الـدب، وتوقـف الدب عـن الحركة حـال وقوعها، كانـت عيناهـا وعينا الدب تتبـادلان النظرات، هي لاتبصر غيـر دب ضخم فاحم السـواد ساكن، يقف عند قدميهـا، وهو لا يبصر غيـر أنثى لدنة منطرحة على الأرض عنـد قدميه، وتصاعد تراكضـ الأنفاس بين المرأة والدب في هذه المسافـة الضئيلة التي تفصل بينهما، فيما كتم الرجال أنفاسهم تمامًا فوق الأشجار المحيطة.

كان طبيعيـا أن تجمد الصـورة وقتًا في مثل هذه الحالـة، كأن المرأة يجمدها الرعـب، وكأن الـدب مراهق بشـري يجمدَ إذ تنفتـح أمامه فجأة أبـواب فرصة لايصـدق حقيقة وقوعها، وفي هذه البرهة من الجمود يكون الرجال في مخابئهم الشاهقة قد رتبوا أوضاعهم، لإطلاق النار من عدة جهات على رأس الدب، حتى يصرعـوه فـي لحظة واحدة، قبل أن يـدرك الفريسة وتختلط حـدة أنيابه ومخالبه بشدة اشتعال رغباته.

لكن هذه المرّة كانت استثناءً.

ففي برهـة وجيزة بعد التوقف، خطا الدب خطوتين اثنتين، ناعمتين سريعتين، فصارت المرأة في حضنه، واختلط الأمر على حاملي البنادق فوق الذرى، فالدب الـذي لابد لم يكن مراهقًا، وكان ناضجًا لحد الاقتحام، تمدد من فوره على جنبه بعـد أن أحاط المـرأة المبهوتة بأطرافه الأربعة، صـارت تتوسد كتفه، كأنه يحاذر أن يطأهـا بثقله حتى لايصيبها بسوء، وكان إطلاق النار على رأس الدب مستحيلاً دون احتمـال للقضـاء على المرأة بطلقة تصيب رأسهـا الملاصق لرأس الدب، أو بأنياب الدب ومخالبه إذا حدث أن إطلاق النار لم يُرْدِه صريعا في الحال.

وجاءت لحظة جمود البنادق!

إذا حسبنا طول اللحظة بما يقع فيها، فإن هذه اللحظة كانت مفرطة الطول لحد استلاب العقل؛ إذ إن المرأة التي حولها الرعب إلى لوح من الثلج في حضن الدب، كان لابدّ لها من وقت كاف حتى يذوب ذلك الثلج، ولابد أن الثلج قد ذاب على الرغم من دوام الرعب ؛ لأن المرأة التي كفّ صراخها، وهدأ تململها، تلاحقت أنفاسها حتى صار بمقدور العيون فوق ذري الأشجار أن تلحظ تنهدات صدرها، وهج جسدية برية مطلقة وجدت المرأة جسدها محوطا به، الجسدية في عرامتها الجارفة، لا رديف الحيوانية المشتعلة، بل الحيوانية نفسها، خلاصة الرغبات الوحشية وقد وجدت لنفسها مكاناً حاراً في غابة النفس الإنسانية الكثيفة المتشابكة، ويبدو أن هذا الجزء الحار من الغابة في نفس المرأة ما إن أوشك على الاشتعال الفعلي، حتى دوّى الرصاص.

دوى الرصاص إذن في لحظة اختلاط كبرى..

لحظة من الحنان المشتعل والرعب المحلّق من مصدر هذا الحنان في آن واحد، ثم جاءت طلقات البنادق، لا لتُبدِّد ذلك الاختلاط، بل لتُثبِّته.

يحكون أن الطلقات في مروقها المشتعل مسّت وجه المرأة بلذع ترك أثرًا لما يشبه آثار الحروق، هذا في حين استقرت ثلاث طلقات في عنق الدب وشدقه ورأسه.

لم يمت الدب من فوره، وكان رد الفعل المعهود في مثل هذه الحالة أن ينشب مخالبه وأنيابه في أقرب لحم إليه، وكان لحم المرأة منه أقرب ما يكون. لكنه في مشهد أسطوري فتح أطرافه على اتساعها وتدحرج في بطء ليطلق المرأة دون أن تخدشها مخالبه، وكان يتأوه محتضرًا بحشرجات آسفة كأنما يودع بها المرأة التي أصابها الذهول.

لم يبرحها الذهول أربعين يومًا بعد ذلك، لم تكلم خلالها أحدًا، لم تتحرك ولم تأكل إلا إذا دفعوها إلى ذلك دفعًا، وفتحوا فمها؛ ليصبوا فيه الحليب الذي

لـم تقتت بغيره، ولبثت طوال هذه الأيام الأربعين على هيئة جامدة ومطيعة، كأنها تمثـال مـن الشمع، قبل أن تنحـل جمدتها وتثبت على صورتهـا الذاهلة الهاذية، تلـك التي رأيتها عليهـا في قرية مرقصـي الدببة ذلك الصبـاح، فكيف تكون في الليل، وقد سعينا إليها بعد منتصف الليل.

***

هـل وسّع التوجس حدقتـي عينيّ؟ أم أن ألق النجـوم الكاثرة في ليل راجستان البنفسجي كان كافيا لإضاءة المشهد بنور فضي خفيف؟

تسللـتُ مع مرقِّص الدببة، والسائـق بيرام، إلى خسف القرية الغارقة في النوم. وبـدا لي أنني في حلم غريب، قوامه بصيص الضوء والكيانات الشبحية والظلال. أشبـاح الأكواخ وأشباح أشجار الكينـا التي يهسهس فيها نسيم الليل.. أمّا الدببة، فلـم تتجل لناظري على التو، إذ كانت راقـدة، سوادها من سواد الأرض، كتل من السـواد علـى السواد، لم تكـد تكشفها لـي إلاّ ململة وانية لهذا الـدب الراقد أو ذاك.

توارينـا خلف كوخ قادنا إليه مرقص الدببـة، وانتظرنا، وبدا لي أن الانتظار قد طـال، ولعله عطش التشوف هو الـذي أشعرني ببطء مـرور الوقت، فنخزت من يقـف إلى جواري سائلاً: «هل تسخر منّا؟». وأجابني صوته مكبوحًا مشددًا على الكلمـات: «أقسم أنها تخرج في الليل»، ولعل استكانتي العجيبة لنسيم هذا الليل هـي التي هدّأت فضولي، الصمت والظلال والابتـراد الخفيف والظلمة الشفيفة، كل هـذا كان يهدهـد تشوفي، حتى كدت أغمض عيني عن هـذا التشوف، وأنام واقفًـا.. وفـي اللحظة التـي تنازلت فيها داخليـا عن الرغبة فـي الفرجة، ظهرت المـرأة كيانـا من ظل يسري أو يطوف، هكذا بدت لـي، ورحنا محاذرين نتعقب هذا الظـل، وشرعت كومات من الظلمـة تنهض واقفةً في الظلمـة، وكأن الدببة الهاجعـة سـرى بينها إشعـار كتيم فنهضـت تستجيب له، الآن دبـت الحركة في ساحة القريـة، عشرات الدببة المربوطة في جذوع الأشجـار كانت تنهض واقفة

كالبشـر، وراح الطيف الذي نتتبعه يمر على الدببـة، وتبينت دلوًا في يدها تحمله وتوشـك أن تنوء بحملـه، ولم يكن ثمة صوت غير صـوت الخُطى الخفيفة على الأرض الترابيـة، ثم تبينت صوت المرأة الهامس، بل الحاني، كانت كلما اقتربت من أحد الدببة تقول له شيئا، وتربّت عليه فيناغي بصوت كأنه طفل ممتن، تغترف بيدهـا مما في الدلو، وتلقم الدب فيـزدرد عطيتها في لهفة وبصوت مسموع، ثم تـودع الدب بتربيتـة من جديـد قبـل أن تمضـي إلـى غيـره. «إنها تنـادي الدببة بأسماء الناس.. بأسمـاء الناس تناديهم». مال مرقص الدببة على أذني هامسًا حتى أحسسـت ببؤس أنفاسه، ويبدو أن إلحـاح السؤال لم يطق صبرًا داخلي: «ما هذا الـذي تطعمهم إياه؟». كان صوتي أعلى مما ينبغي، فاسترعى انتباه المرأة، ولعلها كانـت تجيد الرؤية في الظلام؛ لكثرة ما اعتـادت الحركة في مثل هذا الظلام، إذ لمحتنـا واهتاجت مـن فورها، صرخت قائلـة شيئا ما، ثم راحـت تطاردنا قاذفة إيانـا، ونحن نجري أمامها، بلطخ رطبة حسبتها طينًـا تكشحه من الأرض، وهي تتعقبنا وتصرخ.

لـم يكن هناك بدٌ من الفرار والابتعاد عن القريـة، وكانت سيارتنا التي تركناها علـى الطريق غير بعيد هي ملاذنا، وفـي جوف هذا الملاذ الحديدي مكثنا نسمع صـوت المرأة التـي توقفت أسفل الطريـق توجه إلينا صراخها، ثـم بدأت أشباح عديـدة تخرج من الأكواخ، تتحرك في الظلمة باتجاه المرأة الصارخة، لقد كانت القريـة تصحو وتجيء، وتمثّلت لي، في لحظـة، غضبة جموع بائسة طيرنا نومها الضنين، ثم إن غضبتها المحتملة كان يحميها ستر الليل.

بعـد أن ابتعدنـا عن القرية مسافـة كافية شعرت بالأمـان، وانتبهت إلى لزوجة اللطخـات التي كانت المرأة تقذفنا بها وهي تطاردنـا، كانت إحداها قد أصابت جانـب وجهي الأيمـن، وتسلل شـيء منها إلى فمـي، كان خبـزًا منقوعًا في ماء مُحلّـي بالسكـر، هـذا إذن مـا كانت تغترفه مـن الدلـو، وتطعمه للدببـة، وهذا ماجعلنـي أنشغـل بالتفكير في منظومتهـا العقلية المشوشـة، والمنضبطة في هذه

الجزئيــة وحدها: ترتيب كل مستلزمات خروجها الليلــي، الحصول على الخبز، والمــاء والسكــر، ونقع الخبز فــي النهار حتى يهش ويطرى فــي الليل، ثم ترتيب الخــروج المنتظم هذا بعد منتصف الليل.. إيقاع حيــاة يومية منضبطة، وإن تكن معكوســة، ولابــد أنه صــار إيقاعا داخليا لديهــا كانقلاب إيقاعــات كثيرة داخل نفسهــا، كنــت أفكر في ذلــك عندما عدنــا نمــر بفاتيهبور سيكري مــن جديد، وترامــت إلينا أصــوات آتية مما وراء البوابــة الكبيرة، كأن لعبًا يــدور في الساحة القديمــة هناك، برقت في ذاكرتي صورة عجيبة مــن تاريخ زائل تهجس بكنه هذا اللعب، لكنني كنت خائفا وكنت تعبًا فلم أشأ أن أتوقف لمعرفة مصدر الأصوات الآتية من داخل مدينة الأشباح الغارقة في الظلام، تجاوزت سيارتنا ظلمة فاتيهبور سيكري، وكانــت السيارة كلما ابتعدت تقترب في خاطري تلك الصورة العجيبة مــن زمن تلاشى. فالإمبراطور المغولي أكبر كان يلعب الشطرنج على رقعة هائلة، مربعاتهــا مــن اليشب الأســود، والمرمــر الأبيض باتســاع الساحة أمــام القصر، وكانــت بيادق اللعــب من الجــواري الحسان اللاتــي يملأن قصــره، ينقِّلهن مع خصمــه في اللعب، بإشــارة إصبع يرسلها من الشرفــة الإمبراطورية، ينقلهن عرايا في غلائــل شفيفة بيضــاء وسوداء، صــورة تشبثت بخواطري ولــم تبرحني حتى دخلــت في البــرزخ الكائن بين الصحو والنوم، وما أغــرب أنني حين غلبني النوم شاهــدت مبــاراة شطرنج في حلم خاطــف، وكانت البيادق علــى رقعة هائلة في ساحــة ميدان كبير، تتكون من دببة، دببــة بيضاء، ودببة سوداء، تتحرك في نقلات محكمة، دون أن يظهر أي أثر لأي لاعبين. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

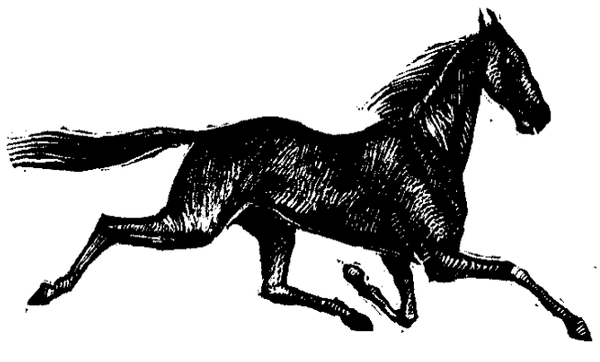

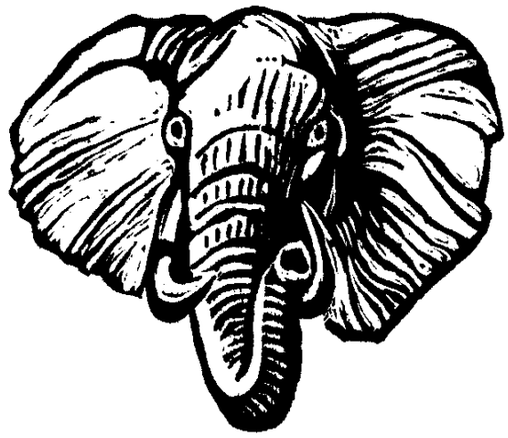

● الطيور، ومثالها الحمائم، تستطيع أن تسمع الأصوات شديدة انخفاض الذبذبة والمعروفة باسم تحت الصوتيات، والأفيال تشارك الطيور في هذه الإمكانية وتستخدمها للاتصال والتواصل. (**جون دونر ـ الحس الفائق، الاستقبال في عالم الحيوان**)

● توجه الأسد نحو الصيد فلقيه فيل، فقاتله قتالا شديدا، وأفلت الأسد مثقلا يسيل دما قد جرحه الفيل بأنيابه، فكان لا يستطيع أن يطلب صيدا، فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول الأسد (**كليلة ودمنة**)

● وهل قتل الأسد قط فيلا؟ ومتي أكله؟! وإنه مع ذلك لربما ركله الركلة، فإما أن يقتله، وإما أن يذهب عنه هاربا في الأرض (**الجاحظ ـ كتاب الحيوان**)

● الفيل إذا وقع على جنبه لا يقدر على القيام، فتخبر الفيلة بعضها بعضا فيأتيه الفيل الكبير، يجعل خرطومه تحته وسائر الفيلة يعاونونه حتى ينتصب على قوائمه. (**القزويني ـ عجائب المخلوقات**)

الأفيـــال ترتـــوي

رئيس جامعة ناميبيا وهو يستقبلني مع زميلي المصور في مكتبه الذي يعتلي أحد تلال ويندهوك، قال معتذرا برقة كريمة: «أعتقد أنكم أول بعثة تستطلع كنز الحياة البرية في بلدنا، ليس من بلدانكم العربية فقط بل من العالم الواسع بما فيه كثير من بلدان أوربا، ولست وحدي المهتم بمجيئكم، بل كل المعنيين في الدولة، لكننا في مرحلة بداية الحكم اللاعنصري نكاد نركع على ركبنا من شدة الضائقة الاقتصادية، التي يغذيها البعض لإحراج النظام الجديد، إنهم يضغطون لنلجأ إلى العنف؛ فنواجه بعنف أشد، لكننا منتبهون إلى

ذلـك، سنوفر لكم سيارة قوية مـن سيارات الجامعة مع سائـق دليل من موظفينا، وسنعمـل على تيسير مهمتكـم، وتخفيض النفقـات بأقصى مـا نستطيع، في كل مكان تذهبون إليه ».

عنـد نهاية اللقـاء كان رئيس الجامعة قـد هاتف سكرتيرته، وبينمـا كنا وقوفا نتبادل آخر كلمات المجاملة، ونلتقط الصور التذكارية، طرق الباب ودخل شاب طويـل رقيق الملامـح والقوام، أشار إليه رئيس الجامعة بمـودّة قائلا: «وها هو ذا كاتشـا الذي سيصحبكم في جولتكم الكبيـرة ».. أحسست على الفور بأن طيفا لطيفا وُجِد في المكان النظيف المضيء، والموشّى بلمسات لونية مبهجة، لكنني بالطبـع لـم أكن أتصور أن يتحول هـذا الطيف إلى لغز مؤلم، إيـلام اختفاء إنسان قريب، أو صار قريبا، في مجاهل الغابة.

كان مكتـب رئيس الجامعة فسيحا بحيطان بيضاء، علقت عليها لوحات ذات ألوان وتشكيلات إفريقية حارة وصافيـة، وكان الأثاث البسيط أسود لامعا، بينما قماشـ المقاعد يكرر صفـاء الألوان الحارة ذاتها التي فـي اللوحات، كان كاتشا كرئيسـ الجامعـة أسود، ذلك السواد الخفيف على ملامـح منمنمة يتّسم بها أبناء الجنـوب الإفريقي معظمهم، مما يستدعي الإحساس بقوة الفكرة القائلة: إن أهل هذه البلاد هم نتاج الهجرات القديمة من ساحل شرق إفريقيا، فهم يشبهون كثيرا أهـل أريتيريا والصومال، بل يذهبون في ذلك عميقـا؛ حتى يشبهوا أبناء النوبة في مصـر، ولعل ذلـك كان سر ارتياحي إليهـم منذ اللحظة الأولـى لوجودي بينهم، لكنـه ارتياح ليسـ سهلا، بل يحتوي أبعـادا مركبة تركيب بلدهـم الذي يتشرب خواص عوالم متباينة تحيط به، صحراء كاليهاري من الشرق، والمحيط الأطلسي مـن الغرب، وأعماق البراري الإفريقية من الشمـال والجنوب، وفي قلبـه تمتزج وتمـور كل هـذه العوالم، مع لمسة جرمانيـة دقيقـة، وأنيقـة، تركها الاستعمار الألمانـي وراءه وحافظ عليهـا المواطنـون البيض، الذين تأفرقـوا في هـذا البلد أكثـر مـن أي مكان آخر فـي الجنوب الإفريقي كلـه، ثم صانها بـذكاء وتحضر

سياسي مناضلو جبهة سوابو، الذين تسلموا الحكم أخيرا، بعد انزياح النظام العنصري.

اقترح علينا رئيس الجامعة أن نذهب إلى الساحل عبر طريق الجبال في الغرب، ثم نتجه إلى غابة إتوشا لنصوِّر الأسود، ونعود من هناك في الطريق الشرقي إلى العاصمة، وبذلك نتلامس مع الألوان العديدة للطبيعة النامیبية. ولأربع ساعات كاملة مكثت اللاندروفر بقيادة كاتشا، تشق الطريق في متاهة الوديان الحمراء البرتقالية، وتعتلي التلال والجبال الصلصالية المتماوجة بألوان بين الوردي والبني والأبيض العاجي، تضاريس سرمدية مفعمة بالغموض وضعتنا في المجهول الكوني ونحن على الأرض، ولم يكن هناك دليل أمان نتعلق به غير كاتشا الصامت والهادئ وراء عجلة القيادة، لم يتكلم إلا عندما كنا نسأله، ولم نتكلم إلا مرات قليلة، عندما كانت السيارة تخرج من مجهول عميق إلى سطح مكشوف، به شيء من معالم الحياة، واحة جبلية صغيرة، مزرعة على الطريق، أو مرعى للماشية نعبر بواباته البدائية من جذوع الأشجار بين الصخور المرتفعة. وعندما انطلقنا في طريق منبسطة بمحاذاة مزارع شاسعة لطيور النعام، تكلم كاتشا دون أن نسأله، قال: «لم تعد هناك جبال، نحن نقترب من الساحل»، ولم يبد مرتاحا لذلك، عاود صمته، واكتشفنا في الطريق الممهدة المفضية مباشرة إلى الساحل، مدى الخوف الذي كان يجثم على صدورنا في الطريق الطويل عبر الجبال، ثم رأينا البحر، وأي بحر! إنه المحيط الأطلسي، باتساع صدره الهائل وآفاقه اللانهائية، ولطمات أمواجه العارمة وإن تهادت مترفقة بذلك الشاطىء الإفريقي الوديع، جذبني نداء آسر للانتقال من مقعدي الخلفي لأكون إلى جوار كاتشا، إذ أحسست به كأنما ينتفض انتفاضات مكتومة مع كل خفقة من خفقات موج المحيط، صرت أنظر إلى الطبيعة ببعدين في آن واحد، أرى الوجود كما هو من حولنا، وأرى تفاعل كاتشا الخاص جدّا مع هذا الوجود.. نمرُّ وسط مزارع النعام؛ فنثير الطيور العملاقة لتجري بمحاذاتنا في سرعة خارقة، فأرى اهتزاز رأس كاتشا كأنه يجاري ركض النعام، ونخترق الطريق الساحلي قرب

محميـة لطيور البحر، فترفرف مرتفعـة مئات طيور الفيلامنجو، كاشفة عن بطون أجنحتهـا الحمراء الياقوتيـة، وأشرطة الريش الأسود الفاحـم على حافة الحمرة. وألمـح كتفـي كاتشـا تتوتران كمـا لو كانتـا منبتي جناحيـن خفيين يتوقـان إلى التحليق.

صـادف مرورنا بالساحل، الاحتفال باستقلال ميناء بيرليتز، الذي كان خاضعا لنفـوذ النظـام العنصري فـي جنـوب إفريقيا المجـاورة، وكانت هنـاك لافتات متواضعـة تحيي المناسبـة، وسألت كاتشا عن المكان؛ فأخبرنـي بأنه على مقربة دقائـق قليلة، كدت أقفـز حماسا لهذه المفاجـأة، وطلبت منه أن نتجـه فورا إلى هنـاك، وصلنا بالفعل بعد دقائـق، وكان الاحتفال على وشك الانطلاق في ملعب بسيـط لكرة القـدم.. عشـرات الآلاف من الناميبييـن السود كانوا هنـاك، كبارا وصغـارًا، رجـالا ونساء، يملأون المـدرج وأرض الملعـب، يحيطون بمنصة يعتليها بعض الـوزراء، وقادة النظام الجديد، وضيـوف من حزب مانديلا، وكان هناك أيضا بعض الأفريكان البيض المناهضين للسياسات الاستعمارية والعنصرية، كان المواطنـون وقادتهم يرتـدون أفضل ما لديهم، صخب مـن الألوان الفَرِحة، لكـن الثيـاب لم تستطـع أن تخفـي تواضعها وقدمهـا، حتى المنصـة والمقاعد وتجهيـزات الإذاعة كانـت متواضعة أيضا، وكان الفـرح الغامر يغطي رقة الحال بأعلام ناميبيا المرفرفة على الصواري، وبين الأيادي، وبالهتافات والأغاني ورقص التظاهـرات الإفريقيـة المُوقَّع الحلـو، وجدت نفسـي شديد التأثر بهـذه البراءة الوطنيـة، والتطهـر السياسي، وإن كنت لـم أستطع كبح التسـاؤل في داخلي عن المدى الذي يمكن أن تصمده هـذه البراءة المدنية، وذلك التطهر السياسي، أمام إغـراءات السلطة المسلحة بقوة جيش نظامـي، وغوايات الحكم المدجج بنفوذ قـوة رسميـة. وأدهشنـي ألا أجـد لـدى كاتشـا تفاعـلا استثنائيا مـع إيقاعـات الاحتفـال، كذلـك الـذي كان يعتريه مـع تراكض النعـام وتحليـق الفيلامينجو وصخـب المحيـط، كان مسـرورا نعم، لكن سـروره لم يبلغ حـد ذلك الطرب الداخلـي الذي يهـز كتفيه برفرفة، أو يمايـل رأسه بتنغيم، بدا مهتمـا أكثر من أي

شـيء بألا نضيع منه وسط الزحام، وبأن نسـرع لنلحق برؤية شاطئ الفقمات عند سواكابوند قبل انقضاء النهار.

بعـد عشر ساعات كاملـة بدأت من العاصمـة في السادسـة صباحا، وانتهت بوضـع حقائبنا فـي الغرف التي اخترناهـا في فندق «أوربـا» ذي الجمال الدقيق والنظافـة التي تبرق في قلب سواكابوند، بادرنـا كاتشا لأول مرة بالحديث، كان يستحثنـا على الإسـراع إلى شاطئ الفقمات: «الساعة صـارت الرابعة والنهار لم يعد فيـه إلا القليل». وبينما كانت اللاندروفر تشق شـوارع سواكابوند التي تشبه لعبـة ساحرة تغسل أقدامها مياه الأطلسي، لـم يمعن كاتشا بانبهار مثلنا في جمال الأبنيـة العائـدة إلى القرن التاسع عشـر والمطلية بألوان فاتحـة منشرحة، وردية، وفيروزيـة، وعاجية، وليمونية، وسماوية، ولم يلتفت إلى تألق الحدائق الصغيرة على الشاطئ، بدا متطلعا بكل كيانه إلى الهدف الذي راحت تسرع نحوه السيارة.

مطـر خفيـف دفئ كان يهطـل على الساحل، كنـا نتمهل ونحـن نخطو على الصخـور السوداء الملساء الضخمة، المؤديـة إلى الرمال حيث تتجمع الفقمات، مئـات الفقمات البنيـة الداكنة مبتلة على الرمـل المبتل، تلمـع رؤوسها المدورة وأجسادهـا البرميليـة، كنا نتزلـق ونتعثر، أمـا كاتشا فكان ينتقل مـن صخرة إلى صخـرة، بتثاقل وثبات لا يتناسبان وقوامه النحيف، مع خوف واضح من لطمات المـوج للشاطئ التي ظـل يتابعها بعينيـه الطارفتين بشدة مـع كل لطمة، وعندما وقفنـا وسط حشود الفقمـات، رأيت وجه كاتشا المبتل يقطـر حنانا، وهو يتأمل هـذه الحيوانات المسالمة السمينة من حولـه، تناغـم مدهش كان يربط بين عينيه السوداوين وعيون الفقمات السـوداء المدورة التي تبدو إنسانية وطفولية إلى حد بعيد، مما جعلني أتذكر مأساة هذه الكائنات بحزن مضاعف، وغضب على أثرياء الرجـال والنسـاء الذين يتسببون في مجازر تقضي على هـذا النوع من مخلوقات الله.. فمـن أجل معاطف هؤلاء النسوة تنطلق فـي الخفاء رصاصات خاصة رفيعة مـن الفضة، لتردي هذه الكائنات دون أن تشوه الجلـد والفراء الثمين، ومن أجل

نهـم كبـار السن من هـؤلاء الرجال تُقتطـع أعضاء ذكور الفقمـات وتجفف، ثم تُصحن ويضاف مسحوقها إلى أطباق هؤلاء الأثرياء العواجيز؛ طمعا في استرجاع فحولة زائلة.. وكأن صور ما أفكر فيه كانت تمر عبر عيني كاتشا، لمحت نظراته تلمـع بابتلال خفيف فسألتـه: «أما زالوا يقتلونها؟ »، وأجـاب مع تطويحة أسف وئيدة من رأسه: «يقتلونها ».

قضينـا المساء فـي سواكابوند، وكان ينبغـي أن نتوجه إلى إتوشـا في الصباح الباكر، لكـن تجوالنا في المدينة الصغيرة رائعة العذوبة، وذلك الفندق الجيرماني المغمـور بالزهـور، والعشـاء المكلل بشـواء الاستاكـوزا المنتقاة مـن الحوض الزجاجـي للأسماك الحيـة، وتلك الموسيقي المنسابة مـع ضوء الشموع في كل الأماكـن، ورقـة صبايا الفنـدق الفاتنـات بألوانهـن العديـدة الممثلة لخليط أعـراق المدينـة.. كل ذلك جعلنـا نمد إقامتنا يومـا إضافيا، ولـم يكـن كاتشا سعيـدا بذلك، صحيح أنه ظل شريكا لطيفا فـي كل لحظاتنا، لكنه لم يكف أيضا عـن معاتبتنـا لإضاعة يوم فيمـا أسماه «أشيـاء زائدة»، وفي الفجـر التالي انطلقنا بنصيحـة مـن كاتشا إلى إتوشا «حتى نـرى الحيوانات وهي نشطـة قبل انتصاف النهار ».

لـم نشعر بثقـل الساعتين ونصف علـى الطريق، إذ كان كاتشـا يسوق بمزاج رائـق، بينما تنبعث من مسجل السيارة ألحان شريـط لموسيقى البوب، بإيقاعات إفريقيـة، وتتوالـى على الطريـق الذي يشق البـراري بلدات وقـري وديعة ملونة. وعندمـا عبرنا بوابة محمية إتوشا أحسست بكاتشا وكأنه يطير، كان أول ما رأيناه سربـا من الغزلان أفزعه صـوت السيارة؛ ففـر عابرا الطريق أمامنـا قفزا، قفزات متتابعة مذهلـة الارتفاع والجمال، شكلت من أجساد الغـزلان الرقيقة قوسا حيا رائعـا يطير فوق الأسفلت، ويوصل مـا بين العشب والعشب على جانبي الطريق. أبطـأ كاتشا من سرعة السيارة على الفور، ورأيته ينظـر إلى قوس الغزلان بتسامح وعطـف من ينظر إلى أطفال صغـار يلهون، وبدلا من أن يقـول شيئا عن الغزلان

وجدتـه يتمتـم بصـوت خفيض: «توجد هنـا أفيال كثيـرة.. إنها كبيـرة.. كبيرة جدّا».

نزلنا فـي كوخي «بانجالـور» من أكـواخ المنطقة المسيجة في نطـاق إتوشا والتـي تسمـي «المخيم»، وهي شاليهـات لها مظهر أكـواخ القبائل في الجنوب الإفريقـي، أسطوانيـة بأسقف مخروطية مـن القش الكثيف، لكـن قلوبها كانت عصريـة تماما كالغرف الفندقية الفاخرة، مكيفة وبهـا ثلاجات، وحمامات أنيقة بمياه ساخنة، وباردة.. انفـرد كاتشا بكوخ لشخص واحد، وأقمت أنا مع زميلي المصـور في كـوخ لشخصيـن، وكان كاتشـا يحضّـر السيـارة ليأخذنـا عندمـا نخـرج للتجـول في الغابـة المفتوحـة وراء المنطقـة المسيجـة، بـدا كأنه وجد نفسـه أخيرا، بـدا أكثر انتعاشا ومبـادرة، وكان يسمح لنفسـه بالغياب عنـا بعض الوقـت؛ ليتجول بحرية فـي الغابـة في أثنـاء فتـرات استراحتنـا، وعلى المائـدة بمطعـم المخيم لاحظنا أنه لم يعد يجارينا في طلـب الأطباق الشائعة كالمكرونة وشرائـح الاستيك والبطاطس، بـل كان يطلب أطباقا ناميبية لا نعـرف أسماءها، وأخبرنـا فـي ثنايا الحديث بـأن له اسمين أحدهمـا رسمي (كريستيـان) والآخر إفريقـي ينادونه به داخـل القبيلة، وأن اسم كاتشا هو جزء مـن اسمه القبيلي الذي يفضـل مناداتـه به، وكان عندما يبتسـم يكشف عن أسنان رائعـة التناسق، مشرقة البياض.

خـلال الأيـام الثلاثة التي قضيناها فـي إتوشا، كان كاتشـا يسبقنا في الإفطار، ويذهـب لإعداد اللاندروفر وتزويدها بالوقود من المحطة الملحقة بالمخيم، وما أن ننتهـي من الرشفات الأخيرة مـن الشاي حتى يكون فوق رؤوسنا؛ لنخرج معه وننطلـق بالسيـارة، نعبـر بوابة المخيـم الخلفية العاليـة، ونترك السـور السلكي الشائـك بارتفـاع أربعـة أمتار وراءنـا، فنصير في قلـب الغابة، ونواجـه البراري الإفريقيـة المفتوحة، نلتقي فـي البداية عادة بالغزلان التي تفر من طريقنا، أو ترقبنا فـي التفاتة جماعية متزامنـة للسرب كله إذا كنا بعيدين عنهـا، ثم تظهر تجمعات الحمـر الوحشية التـي غالبا ما تكون قريبة من تجمعات الغـزلان، أو مختلطة بها

ترعى في سكينة وصمت، ونادرا ما يطلق أحدها صوته الصغير الذي يشبه صهيل مهر رضيع، يضحكنا لعدم تناسب الصوت مع حجم الحمار الوحشي، وقوة تمايز الخطوط الأخاذة على جلده.. ومع الإيغال في البراري تبدأ الزرافات في الظهور برؤوسها العالية فوق الأشجار التي تخفي أجسامها، وكان كاتشا يرفض تحريضنا للاقتراب منها وإعلاء صوت محرك السيارة لتبتعد حتى نراها كاملة، لكنه بدلا من ذلك أخذنا إلى منطقة بعيدة رأينا فيها الزرافات دون اقتراب، كانت تظهر شامخة بأجسامها المرقطة، ورقابها الطويلة وسط السافانا، كأنها تطفو عاليا فوق العشب.. وعند تجمع كثيف لبعض أشجار الغابة توقف كاتشا، وأشار إلى أعلى فرأينا أضخم أعشاش يمكن تخيلها لطيور النساج، وأبصرنا محاولة افتراس حقيقية تقوم بها أفعى لبعض العصافير، لكننا لم نرد التوقف عند مثل هذه الافتراسات الصغيرة، كنا نبحث عن المفترسين الكبار، الأسود والفهود والتماسيح، ولم يكن كاتشا مشغولا بذلك، كان دائم الثرثرة عن الأفيال: «لابد سنرى فيلا.. الفيل الإفريقي كبير جدّا.. إنه عظيم.. ضخم.. حتى الأسود تهابه».

على الرغم من انبساط البراري الفسيحة، وانخفاض مستوى السافانا، وقلة الأشجار، وكثرة الأراضي التي أقحلها الجفاف، ظلت إتوشا عبر جولاتنا الدائبة، تبدو ساحرة كونية، لا تكف عن إخراج المفاجآت من جرابها الإفريقي البري. قطيع جاموس يعد بالآلاف مرق أمامنا، رأيناه كسيل أسود، وسط عاصفة من تراب الجنوب الإفريقي عميق الحمرة، سيل داهم تهرب من وجهه مذعورة حتى الضواري وتجمعات وحيد القرن الثقيلة، كان اندفاعا بريا كاسحا لا يرى ما أمامه أو ما حوله، لكنه يشم رائحة الماء على مبعدة عشرين ميلا، وقد يكون الماء في دولة أخرى مجاورة كبوتسوانا أو أنجولا، لكن عطش القطيع لا يعترف بالحدود، ولا يعبأ بها.. وبقدر ماتُظهِر إتوشا من مفاجآت، تظل مراوغة، وتخفي معالم يصعب إخفاؤها، كالأسود التي كنا نبحث عنها، والأفيال التي لم يكف كاتشا عن الحلم بها.

www.ibtesama.com Exclusive

فـي منتصف اليوم الثالث، ومـن مسافة مائتي متر، رأينـا مجموعة من الأسود تهجـع في ظـلال بضع أشجار متجـاورة، ولم نستطـع الاقتراب منهـا؛ إذ أبدى كاتشـا عـدم حماس لذلـك؛ متعللا بأننـا يمكـن أن نتعرض للخطر فـي السيارة

المكشوفة مهما كانت قوية ومرتفعة، وقال: «هذه الوحوش لا أمان لها.. وهي من قريب كريهة الرائحة جدّا!» اكتفى زميلي بأخذ لقطاته عبر عدسات الزوم، وتابعت أنا الأسود بمنظار صغير، كان في حقيبة المعدات، تعجبت من الكسل المطمئن الذي يوشك أن يكون بلادة لدى هذه الكائنات الرابضة على عروش البراري. رأيتها بين هاجعة ولاطية على بطونها وجنوبها، فيما يشبه إغفاءة جامعة، ولم يكن يتحرك بينها غير لبؤة وسط أشبال يلهون بالتعارك معا، بينما هي تلطمهم بخشونة كلما اقتربوا منها.. كان الأسد الكبير مُقعيا في سكون، ولم أستطع تبين إذا ما كان نائما أم صاحيا ؛ لأن المنظار الذي أتطلع من خلاله كان محدود القوة، لا يُظهر تفاصيل العينين، لكنه بدا مهيبا بمعرفته العظيمة، ووضعه المنذر. «الزعيم نعسان» قلت ذلك وأنا أتطلع عبر المنظار، فسمعت ضحكة زميلي المصور تنطلق عالية، ولم يضحك كاتشا، فابتسمت وأنا أفكر فيما يقال عن أن الأسد الكبير يفرض هيبته في منطقة شاسعة، تصل إلى مائة ميل، وأنه ينام عشرين ساعة في اليوم ليعوض الطاقة التي يفقدها في هضم ما يلتهمه من لحوم فرائس طازجة، تقدمها إليه اللبؤة.

حتى غروب اليوم الرابع لم نر فيلا من الأفيال، التي لم يكل كاتشا في البحث عنها، بل التي بدا أنه لا يبحث عن شيء سواها، وإن في صمت.. لم نحظ منها إلا بآثار تدل دائما على مغادرتها للمكان الذي نصل إليه.. كتل من روثها الذي يشبه قطع حجارة ضخمة، أو كومات عظام عملاقة، وجماجم كل منها بحجم رجل.. ترجلنا نتلمس الجماجم والعظام بدهشة، وتوقف كاتشا أمامها طويلا دون أن يمسسها، أخبرنا في تأثر عميق بأن المكان هو مقبرة للأفيال، ثم أطرق طويلا وهو يتمتم أو يهذي بأصوات خافتة أشعرتنا بالرهبة.

«ما فائدة الأفيال الإفريقية؟» سؤال بدا صغيرا عندما طُرح في مؤتمر لأنصار الحفاظ على الحياة البرية، تابعته في بريتوريا قبل رحلتي إلى ناميبيا بتسعة أشهر،

وعندما حاولت أن أجيب عنه تحيرت، كما تحير كثيرون غيري، وعادت حيرتي تطل برأسها وتكبر في إتوشا، ربما تحت تأثير الهاجس المستبد بكاتشا، وجعلتني ملامسة العظام العملاقة في مقبرة الأفيال أفكر في الجانب المعنوي لوجود مخلوق بحجم الفيل الإفريقي، الذي يعد أضخم كائن يدب على وجه الأرض. «وتهابه حتى الأسود»، ترجعت في ذهني هذه الجملة التي رددها كاتشا في انبثاقات ثرثرته المتواصلة عن الأفيال، وبينما كنا نعود في غروب اليوم الرابع من إتوشا، وفي حمرة الشفق الجليل الذي ران على الغابة، وهي تصل إلى أعمق لحظات سكونها، أحسست أنني ربما أمسك بجوهر الإجابة، فمعلومة أن الأسود تهاب الأفيال صحيحة، بل أعرف أن الأسود تتوارى عن طريق الأفيال رهبة إذا صادفتها، ولم أقرأ أو أسمع عن حالة قنص واحدة قامت بها الأسود في حضور الأفيال، وها هي ذي المسألة:

الأفيال تُرهب الأسود، والأسود تُرهب من عداها، فالرهبة العظمى في البراري تمثلها الأفيال، وهي رهبة لا تفترس أحدا، ولا تقتات بلحم أحد، فهل تلعب الأفيال دور الرادع السلمي، أو الضمير ضد إغراءات القوة لدى أباطرة الغابة من الوحوش؟ وهل يمثل وجودها ضرورة قصوى لحماية دورة الحياة من استدماء التوحش المحتمل، إن تجاوزت القوة المفترسة ـ بطبيعة تكوينها ـ حدود ضرورات الحياة وتأمين النطاق؟ أسئلة كانت تشرق داخلي مع عتمة الغروب المتكاثفة، ونحن نعود باتجاه المخيم، وأحسست لأول مرة بعمق أشواق كاتشا إلى الأفيال، ووددت لو كان الوقت نهارا لنعود ونجدَّ في البحث عنها، هذه المخلوقات السرمدية، المتواضعة إلى حد أن أقصى مُتَعِها مع إسكات الجوع أن تهز أشجار خروب الشوك؛ لتسقط بعض القرون وتستمتع بها كغذاء محبب، ثمة من يتهمها لذلك بالمسئولية عن إمكان انقراض هذا النوع من الأشجار، لكن هذه القرون وهي تمر في أمعاء الأفيال تتفسخ، لتخرج منها البذور، وبعض هذه البذور لا تُهضَم، بل تلين قشرتها، ويطري قلبها، وعندما تخرج مع روث

الأفيال تكون مؤهلة تماما لإعطاء بادرات جديدة، يمدها السماد الطبيعي الوفير من حولها بإمكانات النمو السريع، والغوص بجذورها عميقا في أرض البراري الإفريقية، فكأن الفيل لو خرَّب شجرة يزرع بدلا منها عشرات الأشجار، هذه حياته، أما موته: فهو وليمة باذخة للجوارح والضواري التي تجد في جسده الهائل ما يشبعها، ويكف أذاها عن المخلوقات الأضعف لفترة طويلة، فيحلُّ سلام عجيب بالغابة، وكأنها تكافئه بحداد كبير من الوداعة يليق بقوة وداعته، مخلوق هائل، أتعجب الآن كثيرا كيف يختزله بعض البشر؛ ليكون مجرد مصدر لعاج الزينة، والحلي الخفيفة!

كان لابد من مرور وقت حتى أدرك أن رؤية فيل إفريقي، إفريقي على وجه التحديد، ليست بالأمر الهين، فهذه الأفيال التي نراها مستعبدة في السيرك، أو في أعمال الحمل والجر الشاقة بجنوب وشرق آسيا، ليست فيلة إفريقية.. الفيل الإفريقي لا يروَّض، وعندما يُختطف ويُجبر على حياة الأسر في حدائق الحيوان يكتئب، وكثيرا ما يموت باكتئابه، أو يواصل الحياة لكنه يكف عن التكاثر في أسره.

«سيأتي.. هنا». قال كاتشا ذلك ونحن نتناول العشاء في مطعم المخيم، التفت إليه أستوضح ما يعنيه، فقال: «الفيل سيأتي». كان يستعمل مفرد الكلمة «فيل» وهو يعني الجمع، على الرغم من أن لغته الإنجليزية كانت معقولة، هززت رأسي بالموافقة أماشيه، لكنه أصر على إيضاح ما يعنيه كلمة كلمة: «الفيل.. سيأتي.. هنا». وافقته ملاحظا ارتفاع حرارة انفعاله والتوتر الذي يرعش أصابع يديه الطويلة الرشيقة، وحمدت الله أن أيامنا في إتوشا وصلت إلى نهايتها، فقد كان مُقرَّرا أن نغادر في الصباح التالي.

كنا متعبين لأننا أمضينا اليوم كله في الغابة، دون أن نأكل، أو نشرب إلا القليل مما حملناه معنا في السيارة، ركزنا على جمع أكبر قدر من الصور ومن

الملاحظـات عن حيـاة البراري الإفريقية فـي إتوشا، منذ استيقاظهـا في الصباح الباكر، حتى تهيؤها للرقـاد، وليس النوم، فالغابة لا تنام، بل يأوي شقها النهاري، ليستيقظ شقها الليلي من اللواحم قناصي الظلمة، ومنها الأسود التي كانت تستثير فضولنـا، ولـم نستطـع تصويرهـا إلا هاجعة في ظـلال الأشجار نهـارًا، لم نكن مزوديـن بوسائل التصوير والمراقبة الليليين، إضافة لافتقارنا إلى وسائل الحماية.. عملنـا لاثنتي عشرة ساعة دون توقف، لهذا انصرفنا للنوم بعد العشاء مباشرة، ولم تكـن الساعة تتجاوز الثامنة، تركنا كاتشا ليذهب إلـى كوخه، وذهبت مع زميلي المصـور إلى كوخنا، وما هي إلا دقائق حتى استغرقنـا في النعاس بكامل ملابسنا التي عدنا بها من الغابة، كم ساعة نمنا؟ حوالي ثلاث ساعات، ثم استيقظنا فزعين علـى صوت طرقات مجنونـة على الباب، كان كاتشا في حالـة من الفرح الهائج يتعجلنا صائحاً: «هيا.. هيـا.. إنه هنا.. أقسم.. أقسم.. إنه هنا»، ولم يكن أمامنا إلا أن نتبعه.

قادنـا كاتشا فـي اتجاه الشمال الغربي، نحو ركن مـن المخيم لم نتعرّف عليه مـن قبل، وكان هناك كثيرون من مرتادي المكان يتدفقون في الاتجاه نفسه، وهم يتحدثـون عن الأفيال، التفت إلى زميلي وقلت له: «يبدو أن هناك شيئا»، فرفع آلة التصويـر التي اعتـاد كمصور محتـرف ألا يتحـرك بدونها، وعنـد أقصى الركن وجدنا سـورا حجريا نصـف دائري، باتسـاع ملعب رومانـي، ومقاعد حجرية تحيـط به، وكان الجالسون على المقاعد ينحنون علـى السور، كأنهم يطلون من شرفـة، بينمـا المكان كله مغمـور بضوء كشافـات قوية عالية، ممـا يستخدم في إضـاءة الملاعب ليلا.. بدا الصمت سابغـا، وكان عدد من حراس الغابة في زيهم الكاكي والبني الفاتـح، يلاقون القادمين وينبهونهم بأخفض درجة من الهمس ألا يصـدروا صوتا «حتـى لا تفزع الحيوانات». ومـا إن اتخذنـا أماكننا على مقعد طويـل عند منتصف السـور، حتى أطللنا على المفاجأة، فـي الأسفل كانت هناك بركـة ماء كبيـرة، تفتح علـى الغابة المتواريـة وراء دغل مـن الأشجـار الكثيفة،

والأعشاب العالية، وعلى مد البصر كانت الأضواء المترامية، تكشف قافلة من ظهور سوداء رمادية، ضخمة ومحدبة الزوايا، تتهادى بثقل مطمئن مقتربة من البركة، لحظات وانشق الدغل عن أول رأس عظيم، وخرطوم، ونابين، واكتمل ظهور أول فيل في القافلة. التفت أبحث عن كاتشا، فوجدته يقف بعيدا ذاهلا عنا وعن الوجود، يضم يديه إلى صدره وهو يتابع مجيء الأفيال.

كان عرضا حيا هائلا، استغرقني حتى نسيت كاتشا، ونسيت زميلي الذي لابد أنه نسيني أيضا، وهو ينحني ويهرول بلا صوت متنقلا من مكان إلى مكان؛ ليجمع لقطاته من زوايا مختلفة.. ظهرت الفيلة «الأم الكبرى» أولا في هذا الموكب الليلي، ثم ظهرت الأمهات الشابات يتبعهن الصغار، وفي النهاية جاء الذكور. وكان كلما وصل فرد، ذكر أو أنثى، يواجه الفيلة الأم الكبرى، حتى تتقارب رأساهما، ثم يتباعدان، فيما يرتفع الخرطومان كأنما يتبادلان التحية، ويدور جسد الأم الكبرى كبوصلة حية هائلة بثبات وبطء، فيدور بالتوازي جسد الفيل حتى تتوقف الأم عن الدوران عند نقطة معينة، ويتوجه ليأخذ مكانه الذي حددته له على حافة الماء.. يتكرر المشهد حتى يُكتمل توزيع الأفيال حول البركة، ويكون مكان الصغار إلى جوار أمهاتهم في الصدارة، بينما الذكور في الأطراف، ودون صوت، وببطء، تتقدم الفيلة الأم من الماء وتحرك خرطومها فوقه، نسمع صوت نفخات هائلة تنظف بها سطح الماء، ثم تغمر خرطومها لتشرب، وبعد أن ترتوي تتراجع قليلا، وتطوح خرطومها عاليا، وتطلق صيحة مدوية، ماذا تقول؟ لا أحد يعرف، لكن الأمهات الشابات التاليات لها يكررن ما صنعت، ينفخن سطح الماء لتنظيفه، ولا يبادرن بالشرب، بل يدعن الصغار يشربون أولا، وعندما يتمادى صغير في اللعب بالماء بعد أن يرتوي، ينال لطمة خرطوم من أمه، حاسمة ورفيقة، توقفه، وتعيده إلى الوراء، ثم تنسحب الأمهات والصغار إلى الخلف، ليتقدم الآباء والذكور أخيرا، لا ينفخون سطح الماء، بل يعبون منه مباشرة، وتمكث خراطيمهم مدلاة تشرب طويلا حتى الارتواء الذي

يعلنـون عنه بالتململ، فتُعلي الأم الكبيـرة خرطومها في الهـواء وتطلق الصيحة لترتفـع كل الرؤوس، تُرفع مائدة المـاء، وتعود القبيلة كلها في تجاور لصيق حول البركـة علـى مسافة مـن حافتها، لحظات سكـون غامضة تطول علـى مرأى من المـاء، كأنهم يعبرون عن الامتنان لتلك المنحة الرقراقة، ثم يتراجعون بظهورهم، كما يتراجع البشر عند انصرافهم في بلاط السلاطين والملوك، لا يولون ظهورهم للمـاء، حتى يبتعدوا عنه مسافة، عندئذ تستدير الأم الكبيرة حول نفسها، فيستدير بموازاتهـا الجميع، يتوقفون جميعا في سكون جديد لبضع دقائق، ثم تتحرك الأم الكبيـرة، فتتبعهـا الأمهـات الشابـات، فالصغـار، فالذكور الذيـن يحمون ظهر القافلة.

استغـرق عرض ارتواء الأفيال من المـاء ساعتين ونصفًا، وما إن ذهبت الظهور السـوداء الرمادية العظيمة، وغاصت في دغل الأشجار، ثم غابت في البعيد، حتى حـل النعاس المؤجل، واتضح التهالك.. انصرفـت وسنان إلى الكوخ، فوجدت زميلـي قد سبقني، سألته إن كان صور جيـدا، فأجابني بأنه صور كثيرا، ثم سقطنا في جب نوم عميق.

استيقظنا مبهوري الأبصار، كانـت شمـس الظهيـرة الإفريقيـة تسـوط الزجاج المصنفر لكوى الكوخ المستديرة قرب السقف، وهالنـا أن الساعة تتجاوز الثانية عشـرة، بينما كان يتوجب علينـا أن نستيقظ في السابعة لنتنـاول إفطارنا ونغادر. أيـن كاتشـا؟ لماذا لـم يمر علينا وهـو يستيقظ مبكـرا في كل الأحـوال؟ خمس ساعات مرت، وتحولت أسئلتنا العاتبة بحنق إلى ذعر حقيقي من وجودنا في هذا البعد دون دليـل، دون كاتشـا، ولـم تكن هنـاك اتصـالات في هـذه البـراري البكـر إلا عبـر موجـات الراديـو من محطة صغيرة ملحقـة بإدارة منطقة إتوشا، مخصصة لرسائـل الاستغاثـة، والإبـلاغ عن الكـوارث، وكانت هنـاك صعوبة فـي إقناع المسئول عن المحطة بأن حالتنا كارثية، أو تستدعي الاستغاثـة.

..في المساء نجحنا في الاتصال بالعاصمة «ويندهوك» ونحن مروَّعون، أطبق علينا الليل دون كاتشا فلم ننم جيدا، ورحنا ننتظر الشخص الذي أخبرونا أنه سيأتي ليعيدنا إلى العاصمة في النهار التالي بعد تحقيق ضروري في واقعة الاختفاء.. كانت السيارة في مكانها أمام كوخ كاتشا الخالي، وأدلينا بأقوالنا أمام محقق أسود نحيف صغير السن يشبه كاتشا كثيرا، ظل يحاول طمأنتنا أكثر مما كان يستجوبنا، ثم غادرنا مع من حضر ليعيدنا إلى العاصمة، وفي اللاندروفر نفسها التي كان يقودها كاتشا.

لم يظهر أثر لكاتشا حتى اليوم العاشر من أيام مكوثنا في ناميبيا، وعندما عدت أجريت اتصالات عديدة مع ويندهوك في اليوم الخامس عشر، ثم بعد شهر، شهرين، ثلاثة، وحتى أربعة أشهر لم يظهر أثر لكاتشا، ومنذ سنتين ونصف التقيت في معهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة بأستاذ زائر من جامعة ناميبيا، أخبرني بأنه يعرف حادث اختفاء كاتشا الذي لم يظهر بعدها، والذي اعتُبِر في عداد المفقودين في الغابة.

على امتداد تسع سنوات مرت لم أكف عن الرجوع إلى مجموعة صور رحلة ناميبيا، أنتعش بذكريات الجمال الفطري لهذا البلد العذب، لكن انتعاشي ظل يُغيِّم؛ إذ كنت أفكر في كاتشا وقد قضى بين فكي واحد من ضواري الليل، أو كواسر النهار، تسع سنوات كان ينبغي أن تمر، لأتوقف مذهولا الآن أمام صورتين مررت عليهما من قبل مئات المرات دون انتباه، صورتان التقطهما زميلي في أثناء ورود الأفيال لبركة الماء في إتوشا:

الصورة الأولى تظهر فيها مجموعة الأفيال بوجوهها وهي تتراجع عن البركة في أعقاب ارتوائها، وعددها اثنان وعشرون.

والصورة الثانية لمجموعة الأفيال نفسها وقد استدارت تأهبا للانصراف، لكن عددها هذه المرة يبلغ ثلاثة وعشرين.

أعيد وأكرر العد، وأستعين بعدسة مكبرة لأتحاشي الخطأ، فأتيقن أن هناك فيلا زائدا، وأن هذا الفيل الزائد يقع ضمن مجموعة الذكور، في الطرف الأيمن من قوس الأفيال العائدة إلى الغابة، ولا أجد تفسيرا لذلك إلا ما يُقال عن عيوب «الآرتيفاكت» في صناعة الصور، لكن زميلي المصور ينكر ذلك بانفعال المحترف، المحترف الذي لا يقبل تشكيكا في خبرته المهنية الكبيرة. ■

www.ibtesama.com Exclusive

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

www.ibtesama.com Exclusive

المحتويـــــات

لمحتان ٥

غزلان ٧

مُهْر ٩

جِراء ١١

جنادب نحاسيّة ١٣

كان يطارد فراشة في البحر ٢٣

سمكات أرجوانيّة صغيرة ٣١

بغال ٣٧

اكتئاب الخيول ٤٣

جواميس ٥٣

أرانب مسحورة ٥٧

على ظهر فيل ٦٩

الأتُن ٧٩

دببة بيضاء.. دببة سوداء ٩٣

الأفيال ترتوي ١٠٩

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

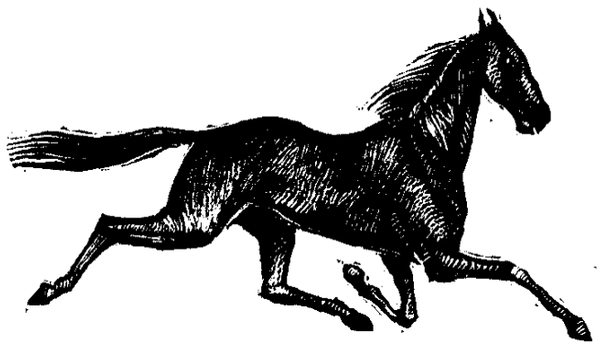

www.ibtesama.com Exclusive

محمد المخزنجي

- ولد في المنصورة وتخرج من كلية الطب بجامعتها وتخصص في الطب النفسي بأوكرانيا.
- بعد اثنى عشر عاما هجر العمل الطبي وتوجه للصحافة الثقافية وهو الآن مستشار تحرير مجلة العربي في القاهرة.
- له سبعة كتب قصصية ورواية ريبورتاج قصصي عن كارثة تشيرنوبيل وكتابان في الأدب البيئي للأطفال وكتاب علمي عن الطب البديل وكتاب إلكتروني في أدب الرحلات.
- صدرت قصصه مترجمة ضمن مختارات عديدة وفي كتب مستقلة بالألمانية والروسية والإنجليزية وقدمت عن قصصه رسالة دكتوراه بجامعة إنديانا.
- حاز على جائزة أفضل كتاب قصصي صدر في مصر عام ١٩٩٢، وجائزة الأدب المصري لكبار الكتاب في القصة عام ٢٠٠٥.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

كان يجر ساقيه الميتتين، وأحس بالحربة
مازالت مستقرة بين فقرات ظهره، تنشر في عظامه
ألما وخدرا، وهو كالمجنون أو أنه جن، يسبح بذراعيه
وحدهما، يسبح مبتعدا عن نذير الزعانف السوداء التي
برزت على السطح، "أسماك القرش تجذبها رائحة الدم"،
برق في ذهنه الخاطر، فأبصر دون أن يلتفت أفواه
القروش النهمة، رأى عيونا لا تطرف،
وصفوفا مطروسة من الأسنان المثلثة الحادة تترصد لحمه.
سمع صوتا كأنه حراك مفاصل صدئة،
فاشتعل يسبح هاربا من فك سينهشه من الخلف في لحظة.
وسمع الصوت ثانية كالصفير،
فمرق طائر مدهوش يخرج من جبينه، والتفت،
التفاتة لا يعرف كيف واتته برغم كل هذا العجز المرير والرعب

رسوم وتصميم: محمد حجي

6221102018555

دار الشروق
www.shorouk.com

مصريات
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com